غربت روح

اسم الكتاب	غربة روح
اسم الكاتب	راندا إبراهيم مدين
تصميم الغلاف	عبد الله عباس
تدقيق لغوي	سلمى مراد
رقم إيداع	2022- 26589
ترقيم دولي	978- 977- 86439- 7- 8

كافة الحقوق محفوظة للناشر
لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

شارك سطورك مع العالم

غـــربة روح

قصص قصيرة

راندا إبراهيم مدين

مقدمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى.

تضم هذه المجموعة قصص قصيرة تعزف على أوتار إنسانية واجتماعية ونفسية من تأليف القاصة راندا مدين، التي تواجه القراء لأول مرة، عرفتها حديثا من خلال حضورها ندوات نادي أدب بركة السبع وفوجئت أنا ومن معي من الحضور - باعتبارها ضيفا حديثا على الندوة- بعذوبة قصصها وولوجها عوالم إنسانية غير تقليدية.

من أجل ذلك يشرف نادي أدب بركة السبع أن يقدم قصص هذه الأديبة والتي نظن أن تجاربها التالية – بعد استيعاب تجربة النشر الأولى وزهوتها - ستكون أكثر نضجا ورحابة وروية.

رفعت محمد رجب

نادي أدب بركة السبع

إهـداء

إلى أبي الذي شرفت بحمل اسمه، رحمه الله وأسكنه أرفع منزلة، وتغمده فسيح جناته.

إلى أمي الغالية التي لا تكل ولا تمل من الدعاء لي ليل نهار، اسال الله ان يحفظها من كل سوء ويمنعها بكامل الصحة والعافية.

إلى إخوتي وأخواتي الذين شد الله بهم أزري.

إلي اسرتي الصغيرة التي أفخر بها دمت لي سندا.

الى كل من دعمني ولو بكلمة، ولمن شجعني أن أحول همسات بقيت حبيسة أدراجي زمنا طويلا إلى صفحات تقرأ.

إلى أستاذتي وصديقتي الأديبة الرقيقة نبيلة غنيم التي سعت بجد لتدقيق وتنسيق هذا العمل كأنه لها، لك مني كل الشكر والعرفان على دعمك المستمر لي.

إليكم جميعا أهدي كتابي، وشكر خاص لكل من يقرا تلك السطور.

راندا مدين

المجـــذوب

***

ارتفع طنين الذباب الأزرق حيث كانت ترتع القطط، وحيث كانت الطيور الداكنة تقتات على القمامة لا يعكر صفوها إلا ذاك الذي جاء يشاركها مائدتها العامرة.. للوهلة الأولى تظن أنه كالإنسان الأول، حافي القدمين وقد استطال شعر لحيته ورأسه حتى كاد يغطي ملامحه، لا يرتدي سوى بعض الأسمال البالية التي بالكاد تستره، وكأنه لا يشعر بالبرد القارس الذي يلدغ الأجساد، وبأيدٍ تلونت بلون الطين وكأنها لم تعرف للماء سبيلاً، كان ينبش بأظافره الطويلة في أحشاء أكياس القمامة، ويلتقط فتات الخبز المتعفن، وبقايا عظام الدجاج ويضعها في كيس أسود كان بيده، ومن وقت لآخر كان يتناول ما يسد به رمقه، ويلهي به معدته الخاوية.

بعد وقت ليس بالقليل انتهى من عمله اليومي، و أرضى بطنه و كيسه أيضاً، وعاد بما جمعه ليقتسمه راضياً مع صديقه، و في

الطريق اجتمع عليه أطفال الحي كعادتهم يقذفونه بالحجارة ويرددون (يا مجذوب يا مجنون يا صاحب الكلب).

نعم كان صاحباً لكلبٍ ضعيفٍ طاردته البشرية أيضاً فأثخنوه بالجروح وكسروا له قدمين، حتى كاد أن يهلك، فأوى إلى ركن بعيد لا يستطيع الحراك، يصدر أنيناً ضعيفاً استهلك كل ما بقى له من طاقة.

اقترب منه المجذوب يشعر بعاطفه قوية تجاهه، فكلاهما قُذف بالحجارة وجُرح، وكلاهما يشعر بألم الجوع والبرد، وهذه روح وهذه أيضاً روح، اقترب منه ورمى له بقطعة خبز كانت في جيبه، أكلها الكلب ببطء شديد وهدأ أنينه قليلا، فقد أحس بالأمان وأنس له بعد أن مد يده وربت على رأسه، ومسح الدم عن قدميه وضمدهما

بخرقة من طرف ثوبه، ثم انزويا سوياً يستمد كل منهما الدفء من الآخر، ومنذ ذلك اليوم والمجذوب يخرج لجلب الطعام لصاحبه الجديد، وفي تلك الليلة، عاد بما جمعه من طعام فاستقبله الكلب

يهز ذيله على غير عادته وأخذ ينبح طويلا، محاولا جر قدميه، ثم أمسك بفمه لفافة وقدمها لصاحبه، تعجب المجذوب من حال الكلب، تعجب أكثر من رائحة شهية غزت المكان، فقد كانت لرغيف من الحواوشي الطازج، ورغم ذلك لم يلتهمه الكلب وحده وآثر أن يقتسمه مع صاحبه، وقد كان.

بعد قليل ارتفع صوت عواء الكلب وصراخ المجذوب بينما علت ضحكات الأطفال، فهم من وضعوا السم للكلب، وما هي إلا دقائق معدودات وساد الصمت.

ملك على مدينه الموتى..

***

ليلا.. وسط صحراء البر الغربي المقفر من ضفة النيل، حيث مقبرة وادي الملوك كان الصمت هو سيد المكان، لا يقطعه سوى عواء الذئاب وطقطقات الحطب لجذوة مشتعلة يجلس أمامها مسترخيا.. خمسيني نحيل داكن الجلد متغضن الوجه، يراقب النار فكلما خبت يُغذيها بالحطب وهو ممسكا (الجوزة) في يده ينفث دخانها في الهواء الطلق باعتزاز.

هنا وسط المسلات الهاوية، والتماثيل المتكسرة، وحيث بقايا رائحة الأشجار المتحجرة التي جلبها الأجداد من بلاد بونت البعيدة منذ آلاف السنين، يشعر أنه الملك وحامي حمى مملكة أجداده، وأن خيزرانته التي يحملها في يمناه، هي الصولجان رمز القوة والسلطة، يتخيل أحيانا حتشبسوت تأتيه بملابس الرجال واللحية المزيفة، لتحكي له كيف حكمت البلاد لأكثر من عشرين عاما، وتختفي حتشبسوت ويبقى عطرها يملأ صدره، ثم يأتيه تحتمس

أو رمسيس فيأنس بهم ويأنسوا به، وهكذا حتى تنقضي وحشة الليل، وسط أجداده. هنا يعمل راضيا بأجره الذي لا يتعدى بضعة قروش زهيدة شهريا، لهذا لم تعرف معدته أبدا معنى الشبع، لكنه دوما قانع رغم أن أجر الأجنبي على عمل مماثل يتجاوز أضعاف وأضعاف، لم يتذمر قط ولم يعرف قلبه الخوف إلا بعدما جاء (الخواجة) رئيسا له، فكان يأتيه ليلا من حين لآخر مصطحبا مكاري بعربة خشبية ويأمر الخفير الخمسيني بنقل بعض القطع الأثرية سرا ولا يتجرأ هو على العصيان وإلا فقد عمله والقروش.

تكررت زيارات الخواجة الليلية وكاد أن يفتضح أمره، فأسرع بالتبليغ عن سرقة بعض الآثار ووجه اتهام مباشر للخفير، ليتفاجأ الأخير برجال الشرطة يتدفقون داخلين من البوابة الخارجية للمقبرة، يتجهون نحوه مباشرة وهم يحملون العصي والسلاسل وبرفقتهم الخواجة، يشير إليه بسبابته مكيلا له العديد من الاتهامات، فيصرخ الخفير:

_ أنت من أمرتني وأنا نفذت..

أنا عبد المأمور يا خواجة.

يشير لهم الخواجة مرة أخرى لينهالوا عليه ضربا، حتى سقط أرضا ووجهه مدرج بالدماء، فقيدوا معصمه بحبل، ربطوه في سرج جواد أحد الضباط وسحبوه من مملكته التي عاش بها حارسا أمينا لسنوات طوال، كان يشعر أن من واجبه أن يكون مالكها وملكها ليحميها من اللصوص، إلي حيث مصيره المجهول بأمر من الخواجة.. سارق البلاد والأجداد.

الحياة ليست عادلة

***

يعتلي المنصة مغروراً ببلاده، يمجد قوتها وسطوتها وما وصلت إليه من تقدم، وكأن ما سواها على تلك الأرض ما هو إلا هوامش خلقت لأجلها، فلم يذكر أنهم من يصنعون الحروب، وينهبون الثروات، ثم يتركون الشعوب تواجه شبح الفقر، وجوع يمزق الأجساد تمزيقاً، جوع لا ينتهي إلا بالموت فما نفع التكنولوجيا بعد أن رخص الدم؟!

ينتهي من كلماته البراقة فيعلو تصفيق بعض الأجساد كأنها خشب مسندة، لا يظهر منها سوى بعض القبعات والصلعات، واليشامغ، يقطع هذا التصفيق شبح أسود وبصوت جهوري يقول:

_ نحن أيضاً نستحق الحياة.. نستحق أن نحلم بالحرية، فلم يكن فقرنا خيارا، كيف تكون الحياة عادلة وأنتم تلهون أطفالكم بأحدث التقنيات، بينما نلهي أطفالنا بخبز صنعته أمهاتهم من التراب!!!

ساد الصمت ونُكست الرؤوس.

غيبوبة

***

بحماس شديد، أسيرُ منتشياً، تغمرني السعادة، فها أنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمي، أقف على خشبة المسرح، أحيي حشود الجماهير التي جاءت من كل حدب وصوب لتشاهد بعاصفة من الهتافات والتصفيق عرضي المثير.

أرفع يميني ملوحاً بسيفي البتار، وأمسك بيساري عدوي اللدود، الذي أعييته ضربا حتى سقط مني أرضا، أبدأ العرض وتتعالى صيحات الجماهير اتنفس بعمق، أرسم ابتسامة تَشَفِيَّ عريضة على وجهي، وبسيفي أضرب عنقه، أضرب عنق كل من ظلمني، سلبني حقي في الحياة، فلطالما تلقيتُ الكثير من الصفعات والخذلان، ولكَم تعرضتُ لسخرية مَنْ حولي.

أما اليوم.. فأنا البطل.. أنا الفارس الهُمام الذي سينتقم لألمه الذي لم يشاركه فيه أحد ولو بكلمة تواسيه، اليوم ستسلط عليه الأضواء بعد ما عاش عمره في ظلام دامس، لا يراه ولا يشعر به أحد.

رفعت سيفي وضربت بكل ما أوتيت من قوة، ضربة.. اثنتان، عشرة ربما أكثر، وربما أقل، تعالت تحية الجماهير وتعالت، حتى تحولت لصرخات تصم الآذان، وقفتُ لحظة لأنظر في وجوههم، فبدت على من بقي منهم ملامح الرعب والفزع بل والتقزز أيضاً، أرى الأصابع تشير تجاهي، والشفاه تتحرك بغلظة، لكني لا أسمعها، أنظر ليدي فأجدها ملطخة وبها سكيناً كبير يقطر دما حتى مقبضه، تتسع عيني بشرود، وفمي مفتوح كالأحمق، يا للهول لقد عادت إليَّ مسامعي، الآن أسمع بوضوح كلمات تتردد (قاتل _مجرم).

من يقصدون؟ من المجرم القاتل؟!هل يقصدونني؟! أنا؟! أنا غير القادر على إيذاء بعوضة؟ أناااا.. من أنا وما الذي أفعله في منتصف الشارع ولماذا كل هذا الحشد، آاه أشعر باختناق مميت في صدري، وصداع عنيف ينبض في رأسي يفترس عقلي ويزيد من ضجيجه،

نبضات قلبي تعلو وتهبط، أمعائي تتقلص، ترتجف يداي فيسقط السكين، ولا تقوى قدماي على حملي، أهوي على ركبتي، أمام الجسد المسجى، أنظر إليه، من هذا؟ أنا لا أعرفه، أحاول أن أتكلم، أتذكر ولا أستطيع، أريد أن أصرخ بكل قوتي أيضًا لا استطيع، صوتي لا يخرج.

يا الله أنني أتذكر، نعم هذا هو.. هذا هو البائع المتجول الذي قاده حظه العسر ليمر من أمامي بعد أن أنهيت جرعتي وجرعة إضافية أيضاً من ذاك المخدر اللعين.

لحظة فارقة

***

بعينٍ لمعتْ ببريق الخوف والأمل، وقف يحدِّق بها وهي ترقد على سرير في المستشفى تحت الأجهزة الطبية، وقد التصقت بيدها بعد الخراطيم للمحاليل التعويضية، أخذ نفساً عميقاً متذكراً عندما التحق بالجامعة، وهناك رآها لأول مرة تخرج من المدرج تحتضن كتبها بوجهها الملائكي وابتسامتها الحلوة التي ما كانت تفارقها، لم يكن يعرف ما الذي جذبه إليها، لم تكن أكثر الفتيات جمالا ولا ذكاء ولا حتى أكثرهن مرحاً، فقط كانت هي.. وهذا يكفي، فما عاد يريد من العالم سواها، ولا يرى من بنات حواء غيرها، فقد أحبها حباً ملك عليه حياته. وكانت أيضاً تُكِنُ له في داخلها حباً كبيراً ولخجلها كانت تخاف وتخشى إظهاره، وفي عامهما الأخير من الجامعة.. وفي يوم عيد الحب الذي يحتفل به كل العاشقين بحبهم، ويخلدون تلك الذكرى، منحها هدية جميلة، كان قد ادخر ثمنها من مصروفه لوقت طويل. ذاك اليوم ظل ينظر إلى عينيها

دون أن يتكلم، وعندما دُهشت لصمته، أخرج من جيبه عملة معدنية وحفر على شجرة كان يقفان بجوارها كلمة أحبك، فاحمرت وجنتاها من الخجل،

واتجهت نظراتها إلى الأرض لتخفي ابتسامة أضاءت وجهها، وتعاهدا منذ ذاك اليوم على أن يكونا معا. لم يكن يملك مقومات الزواج.. لا يملك سوى قلبٍ لا سيطرة له عليه، قلب رسم له الأماني والأحلام وذلل له كل صعوبات الحياة، وبالفعل تقدم لطلب يدها من أهلها وتمت الموافقة تحت ضغط منها، وهكذا تُوَّجت قصة حبهما بالزواج. انقضى شهر في قفا شهر، والعام يخلفه العام، وهو يحيا في صراع دائم مع الحياة من أجل البقاء، هو يواصل الليل بالنهار في عمل دائب، والحياة لا تكف عن طلباتها، أما الحب فقد غرق في بحر المسؤولية وأوشكت ذكراه أن تذوب في مياه النسيان.

كان يتساءل أين ذهبت الأيام .. السنوات.. الذكريات..؟!

بل أين ذهب الحب.؟؟

ماتت الكلمات على أعتاب الشفاه لكنها بقيت حية تتسارع فقط في عقولهم، كلٌ في عالمه الخاص، هي تكابد مرارة العيش، تشعر بالوحدة وسط أسرتها، تشعر ببرودة الجدران من حولها. وهو أصبح منهك القوى، مشلول المشاعر، مشدود الأعصاب، بل أصبح كنمر هائج متأهب لينقض عليها وينبش فيها مخالبه، اعتاد ضربها الذي أفقده قلبه وإنسانيته، واعتادت هي منه الألم وخيبة الأمل.

ذات يوم تشاجرا وهَمَّ كعادته بضربها وحاولت الدفاع عن نفسها فاختل توازنها فوقعت وارتطمت بحافة المنضدة ولم تحرك ساكنا، طار عقله حينما رآها مغشياً عليها والأرض قد ارتوت بدمائها فحملها وجرى بها محاولا إنقاذها.

أغمض عينيه بقوة ليقاوم فيض الذكريات التي اجتاحت عقله، وحاول أن يصم آذنيه بيديه ليمنع ذاك الصفير المنتظم والمتقطع في جهاز قياس ضربات القلب لكنه كان يزداد ويعلو صوته أكثر فأكثر حتى سمعته الممرضة فهرعت لتأتي لها بالطبيب، دق قلبه بعنف، وتلاحقت أنفاسه، يتمنى لو عاد به الزمن ولو لأيام فقط

عادت الممرضة يسبقها الطبيب، وما هي إلا لحظات، تجلت فيها الحياة بوجهيها معا، الحياة والموت، وكان الصراع بينهما على أشده، وفي لحظة خاطفة اختصرت عمرها فصمتت وصمت معها كل شيء للأبد.

عوض..

***

داخل محطة كبرى شديدة الزحام، وكان الليل قد أرخى سدوله.. يقف قطار متهالك من الدرجة الثالثة، و يفرغ ما به من محصول بَشريّ جمعه من كافة البلدان على طول طريقه، فهذه هي محطته الأخيرة، ولوهلة تظن أنه لم يتبق به أحد، فتنزل منه امرأة عجوز تجر قدميها جرا تسير وحيدة على الرصيف تائهة غريبة، تقلب بصرها نحو اللانهاية، تسير يميناً مرة ثم تعود و تولي وجهها يساراً، حتى اتخذت من أحد الأركان البعيدة مكان لها، جلست على مقعد خالي واحتضنت حقيبتها، أراحت ظهرها، وتركت العنان لعقلها ليجتر الكثير من الذكريات بداية من عملها كخادمة في البيوت أو بائعة للخضر والفاكهة لتستطيع بالكاد أن توفر رغيف الخبز لأطفالها الصغار بعد أن هجرها زوجها هربا من المسؤولية، مرورا بفرحتها بإنهائهم لدراستهم وتسلمهم وظائف تقيهم غدر وتقلبات الزمن.

أخرجت من حقيبتها عدة صور فوتوغرافية وراحت تتأملها وبراحة يدها تمسح دموعا لم تستطع كبح جماحها، فقد كانت تلك هي

صور زفاف أصغر أبنائها، كاد قلبها يطير فرحاً يوم أن كانت تظن أنها قد أنهت رسالتها على خير وجه، وآن لها أن تستريح بعد سنوات من الشقاء والعذاب.

لم تكن تعلم أن زوجة هذا الصغير ستذيقها الكثير من الويلات، وتلفق لها الأكاذيب حتى ثار عليها ولدها وطردها من بيتها، فخرجت لتعيش مع ابنتها، ولضيق ذات اليد، لم يتحملها زوج الابنة، ضاقت بها الأرض بما رحبت، فليس لها من بعد بيتها راحة، فلمن تعيش إذن؟!

قررت أن تستقل قطارا لم تجعله وجهتها من قبل علها تذوب وسط زحام الأغراب، ارتسم غضب الذكريات على شفتيها فطوت ما بيدها، ودسته مرة أخرى في الحقيبة، ولتبعد شبح آلامها الهائجة وهمومها المائجة كالبحر راحت تشغل نفسها بمشاهدة

حوائط المحطة الأنيقة المحلاة بالزخارف، وسقفها العالي، وتطلع إلى القطارات الذاهبة والآتية، لساعات لم تحصها حتى غلبها النعاس من التعب والإنهاك.

تسربت إلى أنفها رائحة طعمية نفاذة فظنت أنها تحلم، استفاقت من حلمها على يدٍ صغيرة تهز كتفها برفق فتحت عينيها لتجده واقفا أمامها.. طفلا بعمر الزهور استطال شعره الأكرد وكاد أن يخفي وجهه، له جسد نحيل لا يستره إلا الأسمال البالية، ضاعت براءة ملامحه، تحته قهر الألم والضياع، ابتسم لها بما تبقى لديه من براءة الأطفال ممازحاً ومادا يده بكيس به طعام قائلا اشتريته لأجلك عندما أزعجتني زقزقة عصافير بطنك.

كانت بالفعل لم تتناول شيئا منذ الصباح، بعثت له ابتسامة امتنان ولهج لسانها بشكره والدعاء له، و أرادت دفع ثمن الطعام فأخبرها أن المرة الأولى هدية، ورفع سبابته ممازحاً لها المرة الأولى فقط، فضحكت وبدأت تناول الطعام وحدها بعد أن أخبرها أنه سبقها، ظل يتأمل هيئتها الغابرة، وملامحها الباهتة بما فيها من تجاعيد حفرها الزمن، ومر عليها قطار الفقر والجهل والقهر، يشعر

أن هناك شيء ما يجذبه نحوها فكلاهما وحيد غريب وضائع في مدينه بلا قلب فهو أيضا لا مأوى و لا ملجأ يلوذ إليه بعد أن غدر البحر بوالديه أثناء صيدهما وتركاه وحيدا كورقة في مهب رياح عاتية، حتى استقر به المقام في هذه المحطة يبيع المناديل تارة، ويمسح الأحذية تارة أخرى، وينام حيث تغمض عيناه، يتمنى لو كان له من يهتم بأمره.

بعد أن ثرثرا طويلا، أبكاها كثيرا وأبكته أيضاً، هب واقفا ومسح عينيه بطرف كمه، وأخذ نفساً عميقاً وبنبرة صوت مسرحية فرد ذراعيه وقال:

_ اشهد أيها الشارع اللعين، اشهدي أيتها المحطة، من اليوم أنا لست وحيدا.. من اليوم ستكون لي أماً.

قالها واختنق صوته وانهمرت عبراته لما ذاق من حلاوة كلمة اشتاق لها كثيرا، فتحت ذراعها واحتوته بصدرها الحنون واختلطت دموعهما معا، راجين الله عز وجل أن يعينهما على حياة التشرد الذي جمعتهما.

الأجــوف..

***

خلف عجلة القيادة بسيارتي الجديدة التي أهداها لي عمي وزوج أمي يوم نجاحي في الثانوية العامة، كنت استرق النظر إليه بالمقعد المجاور، جالساً بكل أريحية.. أخرج من جيبه سيجارة من عدة سجائر قد لفها مسبقا بعناية فائقة وزودها بما لذ وطاب على حد قوله، تشممها بنشوة قبل أن يشعلها ليأخذ منها نفسا عميقا، يغمض عينيه ليتلذذ باستيعاب دخانها في نخاشيشه، يسعل كثيرا قبل أن يلتفت لي مشيرا بسيجارته:

_ أما زلت لا تريد أن تجرب هذا الجمال؟!

_ لا، الله الغني، أنا بخير هكذا.

ينفث دخانه ضاحكاً ببعض السخرية:

_ كما تريد، هل أمامنا كثيرا لنصل؟

_ لا، ليس أكثر من ساعة.

أنهى عمي حديثه، وأدار وجهه محدقا في العتمة، بينما ذهب عقلي ليوم كانت أمي ترقد في المشفى لإجراء عملية جراحية، واحتاج الأمر لتعويضها ببعض أكياس الدم، وكنتُ وحدي أرافقها، فهرعتُ إلى

الطبيب ماداً له ذراعي لينهل من عروقي لأجلها ما يشاء، وتم أخذ عينة مبدئية لتحليلها، وبعد دقائق قليلة من أخذ العينة، اقترب مني الطبيب ناظراً إليَّ متفحصاً، وبنبرة غاضبة محتدة بعض الشيء قال:

_ اتبعني.

تبعته خلال طرقة طويلة لا أدري إلى أين، وقد جف حلقي قلقاً، فهل يريدني ليخبرني شيئا عن أمي؟ هل تعاني من أمراض أخرى؟!هل الأمر خطير؟! وإذا كان الأمر كذلك، كان من الأحرى أن ينظر لي بشفقة ولين لا بنظرة غضب وعتاب فلست مذنباً في مرضها!

دارت الأفكار والأسئلة برأسي كنحلة دؤوبة، حتى وصل الطبيب إلى غرفة مكتبه، ودلفنا إليها، أغلق الباب خلفي ثم جلس على كرسي من الجلد وأشار لي أن أجلس أمامه، ثم قال:

_ علمت أنك طالب بكلية الهندسة أليس كذلك؟

_ بلى يا سيدي.

_ ولِمَا إذاً؟!

_ لِما ماذا؟

_ لا داعي للإنكار فالتحليل أظهر كل شيء.

قال ذلك وقد لوح في وجهي بعصبية بورقة كانت في يده.

_أقسم لك سيدي أني لا أعلم عن أي شيء تتحدث.

_ لا تعلم كيف؟ ومن يكون إذن الذي يتناول كل هذه الكميات من المواد المخدرة.. ألا تشفق على صحتك؟! شبابك.. مستقبلك.. ألا تشفق على أمك؟! و...

لم أمهله ليكمل كلامه وصرخت فيه من هول ما قال:

_ لابد أن هناك خطأ.. أنا لا أتناول أي عقاقير، ولا حتى أدخن السجائر.

_جميعكم تدعون البراءة.

أخذ بيدي وأجلسني على الكرسي وبنبرة أقل حدة وأكثر لطفا استدرك كلامه:

_ اسمع بني.. أنت في عمر ولدي ولا مسؤوليه قانونية عليك، وكل ما استطيع فعله لك أن أخفي نتيجة التحاليل عن المسكينة أمك

التي تنتظرك، على أن تعدني ألا تهدر عمرك، ما زال أمامك وقت الرجوع.

قال ذلك وتناول قلما وورقة كتب فيها اسم وعنوان طبيب زميل له نصحني بالتواصل معه لأجل التعافي من الإدمان.

كنت استمع إليه وأنا جاحظ العينين غير مصدق لما يقول، ولا أعلم لما تناولت منه الورقة، ووضعتها في جيبي وانصرفت دون أن انطق ببنت شفة، تذكرت فقط بعض الأعراض التي أصبحت تنتابني أخيرا، وأنا أُرجعها للإرهاق أو قلة النوم، وعدم تناول الأكل

الصحي واعتمادي على الوجبات السريعة في أكثر الأوقات بحكم طول ساعات الدراسة وبُعد جامعتي عن مقر سكني.

أنهى الطبيب كلامه معي، وذهبت لأطمئن على أمي حتى خرجتْ من غرفة العمليات بخير والحمد الله.

كان من المفترض أن أقضي ليلتي بجوارها، فقد عاد عمي للمنزل لجلب المزيد من المال وسيعود صباحا، لم أعد احتمل بقائي في المستشفى وشعرت بعدها ببعض الدوار، لكنني لن أتجاهل الأمر

هذه المرة، سأذهب للفحص، لأقطع الشك باليقين، سأذهب لذاك الطبيب ليثبت خطأ التحليل الأول.

ذهبت إلى الطبيب وتم أخذ عينة جديدة، وكانت المفاجأة.. نفس النتيجة، ارتفاع نسبة المواد المخدرة في الدم.

بدأ الطبيب يشرح لي خطوات العلاج ويوصي ببعض الأدوية ويوضح خطورة التهاون، وضرورة العزيمة والاستعانة بالله و.. و..

كان يتحدث وكنتُ في عالمٍ آخر، لا أسمع مما يقول حرفا، فكل ما يشغلني هو سؤال واحد: كيف؟!

كيف أصبحت مدمناً دون أن أتناول حتى حبة اسبرين! علما بأنني رياضي واهتم بصحتي جيدا! كيف؟.

انطلقتُ بسيارتي وأنا في حالة يرثى لها، قاصداً العودة إلى منزلي ومصارحة عمي بكل شيء، ليجد معي حلا لهذا اللغز، فهو أقرب شخص لي، بعد مقتل أبي في ظروف غامضة، ولم يُعرف القاتل، إلا أن أمي ظلت تردد:

_ الجميع يعرف القاتل.

وعندما أسألها: من هو ؟

ترفع عيناها للسماء لتُحسبن لا أكثر.

ولأننا من قرية ريفية فقد اجتمعت العائلة وقررت أن يتزوج عمي من أمي ليراعي ما تركه أبي من أملاك، لم تفلح توسلات أمي ودمعاتها الحارة أن تثنيهم عن قرارهم. ولأن أهلها من محافظة بعيدة وهي مازالت صغيرة وجميلة خافوا أن تتزوج بغريب يستولى على أموال ابنهم، فخيروها أما أن تتزوج من عمي أو تتنازل له عن وصاية ابنها ويكون له فقط حق التصرف في أملاكه، خياران كلاهما مر.

اختارت أن تبقى حارسة لابنها و أملاكه حتى لو تحت عصمة رجل فُرض عليها، كان عمي يعلم أنها لا تحبه، وتتهمه بالقسوة وسوء الأخلاق مع الجميع، لكنه أحبها وأكرمها وتودد إليها، وأولاني كل رعاية واهتمام، حتى أنه أغدق على الهدايا وخصص لي وقتا قبل النوم يجالسني فيه نتناول سويا العشاء، أو على الأقل بعض العصائر أو المشروبات الساخنة، ثم بعد ذلك يذهب للنوم أما معنا أو في بيته الثاني مع زوجته الأولى وأم أولاده.

توارد في مخيلتي شريط من الماضي حال بيني وبين الضوء الأحمر المنبعث من مؤشر البنزين الذي يعلن عن نفاذ الوقود فلم أشعر

به إلا وقد توقفت سيارتي قبل أن أصل المنزل ببضعة كيلو مترات، خرجت من السيارة الساعة في يدي تشير للواحدة، الظلام حالك، والصمت رهيب، لا سيارات تمر من هذا الطريق بهذا الوقت المتأخر، ما العمل إذن؟

ركلتها بقدمي بشدة لأفرغ بها شحنة غضبي فأدمت قدمي، وتألمت فوق ألمي وانهمرت دموعي، فالمصائب لا تأتي فرادى!

دقائق قليلة وهدأت ثورتي وحمدت الله أنني قريب من القرية ويمكنني أن أسلك ذاك الطريق المختصر الذي أعرفه جيدا مستعينا بكشاف الموبايل.

تحركت داخلا المدق الترابي وسط الحقول، سارحا في حالي، إلى أن وصلت للباب الخلفي من منزلنا ولحسن حظي لم يكن مغلقاً، دلفتُ وسط السكون قاصداً المخزن لأنال بعض البنزين حتى اتمكن من جلب السيارة، فلا أمان لها في ذاك المكان من اللصوص.

سمعت همهمات لم اتعرف على مصدرها في البداية، وبقليل من التركيز أدركت أن عمي يتحدث في شرفة غرفته التي تعلو المخزن مباشرةً، وبدأ صوته يتضح تدريجياً..

_ فات الكثير ولم يتبق إلا القليل، حبيبتي.. فقط قليل من الصبر ويتحقق ما حلمنا به لسنوات طوال.

ترى من يحدث عمي ومن هي تلك حبيبته؟

أكمل قائلا:

_ حتى وإن نجت من تلك الجراحة الخطيرة، فهي لن تعيش كثيرا بعد موت وحيدها.

هل يقصد أمي بكلامه؟ لكنه تحدث عن موت وحيدها وهو أنا! فهل يدبر لقتلي؟!

أكمل عمي:

_ لا لا ليس الآن، فلو زادت الجرعة لانكشف الأمر، لابد أن يبدو الحادث قضاءً وقدراً، ولهذا أهديته السيارة، فلن ألوث يدي بالدم مرة أخرى.

مرة أخرى ؟! رددتها في نفسي وعقلي يكاد لا يستوعب ما سمعته، تجمدتُ مكاني واقفا لا أعلم ما المفترض أن أفعل؟ هل أبلغ الشرطة؟ لكن كيف ولا دليل معي، وقد يتهمني بالإدمان ليودعني

مصحة فيسهل عليه الاستيلاء على أموالي بالقانون، اعتصر الألم قلبي، وجلست أرضا لأدفن رأسي بين كفي وألوم نفسي، كيف لم انتبه من البداية إلى ما يداريه هذا الود الزائف، كيف لم أصدق أمي؟!

انهمرت دموعي بصمت خوفا من أن يشعر عمي بوجودي، فأكون الجاني على نفسي.

تسللت خارجا ودقات قلبي تتسارع، قاصدا السيارة، بعد أن أخذت البنزين، وصلت للسيارة وانطلقت بها على غير هدى، حتى وجدتني قد أصبحت في طريقي لمزرعة أبي القديمة، ذاك المكان الذي كان يشعرني بالراحة وسط الحقول التي ما زالت تحتفظ أشجارها بذكرياتي معه، أردت أن أملأ صدري بهواء نظيف، فركنت السيارة وترجلت منها لأسير وحيدا وسط العتمة.

كنت أشعر بألم لعين لا يمكن وصفه بالكلمات، مشيت كثيرا وبعد أن وصلت لمنتصف الطريق تقريبا.. انتابني شعور بأن هناك من يتبعني فإذا أسرعت الخطى أسرع، وإذا أبطأت هو أيضا يبطئ، وقفت مرتجفا ونظرت خلفي محاولا تصويب الضوء عليه، فلم أر شيئا، زفرت ما برئتيّ من خوف محاولاً استعادة هدوئي، محدثا نفسي أن ما أشعر به ما هو إلا خيالات وأوهام.

خفضتُ الكشاف وسرتُ مجددا، لكنني شعرت بنفس الشيء يتبعني توقفت مرة أخرى والتفت بسرعة مسلطا الكشاف فرأيته. اتسعت عيني أكثر وأكثر، وبلغ الرعب مداه، فأمامي يقف.. ضخم طويل له يد عظيمة، وجهه أسود خالي من اللحم يغلفه الظلام، وجه بملامح بشعة أو بلا ملامح، فعيناه منزوعتين من مكانهما، تاركين تجويفين أسودين واسعين يسيل منهما سائل أسود كالدم المتفحم، أما الفم فكان مفتوحاً عن آخره، بلا أسنان.. بلا شفاه.. بلا أي شيء، غير دخان كثيف يخرج منه.

جف حلقي، فقدتُ السيطرة على أعصابي، خارت قواي، لم تستطع ركبتاي حملي فسقطتُ أرضا، اقترب مني هذا الشيء حتى شعرت بأنفاسه الحارة ورائحته النفاذة، فأدركت أني هالك لا محالة، أغمضت عيني بقوة متمتما:

_ تبدو أنها النهاية، أخيراً.. سأرتاح للأبد.

ودون سابق إنذار، ابتعد هذا الكائن عني وتركني.

فتحت عيني ببطء شديد بعد زوال الخطر، من جديد ساد الصمت وعم السكون أرجاء المكان، حاولتُ أن اتحامل على قدمي لأكمل طريقي فوجدتُ الكائن قد جلس أرضا وسمعتُ له أنينا كأنه يبكي، وقفت للحظات وبصوت مرتعش بالكاد شق حنجرتي قلت:

_من أنت؟ وماذا تريد مني؟

فرفع الكائن رأسه وأشار متأففا بيده لموضع الجرح في قدمي، وبصوت ثقيل عميق كأنه يأتي من هوة سحيقة قال:

_دماؤك ليست نقية وقلبك مليء بالألم.

قلت ساخرا:

_حتى أنت عرفت نتيجة التحاليل.

_أية تحاليل؟

_ لا عليك، فقط أخبرني كيف عرفت؟

_ استطيع تمييز رائحة كل شيء.

_ سألتك ماذا تريد مني؟ كنت أريد أن أتغذى، والآن أريد أن أساعدك، وأخلص قلبك من الألم مدى الحياة.

_ من أنت؟

_نحن كائنات الظلام موجودون منذ الأزل نتغذى على الأرواح القوية، لتزيد من أعمارنا وقوتنا ولا نستطيع التحرك في الضوء ولا يمكن لأحد رؤيتنا إلا وتغذينا عليه، أو أتى لنا بما نتغذى عليه من الأرواح القوية.

وكأن هذا الكائن هو هدية السماء التي ساقها الله لي ونطقتُ دون تردد: موافق.

_ حسنا، لكن لابد لك من أن تأتيني بروح قوية أتغذى عليها، ولتعلم جيداً أيها الفاني أنني أتربص لك ريب المنون، وأنه لا تراجع بعد الآن.

_ أوافق، فأسوأ ما يمكن أن يصيبني، سيكون أقل مما أنا فيه.

اقترب الكائن مني ووضع يده على صدري فرأيتها كأنها دخان ينفذ عبر لحمي، أدار يده في جوفي، فأغمضت عيني وشعرت أنني أهوى

إلى قاع بئر سحيق، ثم أخرج يده نازعا تلك المضغة من مكانها، فانفجرت مني صيحة حسبت أنه لم يتبق أحدا من الثقلين في الأرض ولا في السماء إلا سمعها، ألم شديد ينخر في جسدي، ألتقط أنفاسي بصعوبة، برد يجتاح أطرافي، ثم خدر يسري في جسمي، أغمضت عيني وأنا أظن أنني أصبحت في عداد الأموات.

لا أعلم كم قضيت من الوقت فاقداً الوعي حتى أفقت، وكان دوري أن أفي بوعدي..

لم يكن من الصعب إنشاء حساب وهمي على الفيسبوك وانضمامي لمجموعات البيع والشراء التي يتابعها عمي للإعلان عن بيع مزرعة بسعر بخس لدواعي السفر، كنت على يقين من أن لعابه سيسيل عليها، ولن يصبر للصباح لمعاينتها وشرائها، وهذا ما حدث، في طريقنا للمزرعة الوهمية أو لصديقي الذي ينتظر غذائه، كنت أتمنى لو يعود لي قلبي ولو للحظات لأفرح بنهايته، لكني فضلت أن أقضي حياتي بلا ألم بلا قلب، لا شيء في جوفي غير الخواء، أصبحت كصديقي الأجوف.

ما زلت استحق الحب

***

بإرهاق شديد، خلعت حجابي، بعد يوم طويل من عمل لا احتاج منه إلا الخروج للحياة، حتى يتمكن الآخرون من رؤيتي، فأحظى بعريس كما تردد أمي دائما، استلقي على الفراش بتعب وأحدق في سقف غرفتي بشرود..

ثمانية وثلاثون عاما في انتظار رجل ينقذني من العنوسة التي أصبحتْ كلعنة ترافقني أينما ذهبت، وبعد طول انتظار من الصبر والمعاناة وحديث الناس أنه قد فاتني قطار الزواج، تمت خطبتي.

وأخيراً تحقق حلمي وفرحت ككل بنت تشرق شمس حياتها بأحلام وردية بعد ظلام دام لسنوات، وأصبحت كطير يحلق في السماء عالياً مغرداً بأعذب الألحان، أنارت الدنيا بعيني ورأيتها تتألق بألوان براقة، فالآن فقط أبعدت عن نفسي تلك التهمة التي طالما لحقت بي، ورأيتها في أعين كل المحيطين بي حتى أقرب الناس لي، ذهبت

لعملي أحمل لزملائي الحلوى، وأوزع عليهم ابتسامتي التي تتسع حتى تكاد تصل ما بين الأذنين! أتعمد تحريك يدي يمينا ويسارا،

ليتلألأ ذاك الطوق الصغير حول إصبعي، وكأني أقول لهم أنا الآن مخطوبة، لست عانسا، ولم يفتني القطار بعد.

أقبلت على الدنيا بروح محبة لكل ما هو جميل وبكل مشاعري وعواطفي المختزنة لسنين، ذهبت لمحلات بيع الهدايا لاختار أزكى العطور وأرق الورود لتقديمها كهدية لمن هو سبب فرحتي، ففرح كثيراً بالعطر، وقال إنه يبدو غالي الثمن أما الورود الحمراء فلم يعرها أي اهتمام، بحجة أنها ستذبل سريعًا فلا داعي من إهدار المال بلا فائدة. طلبت منه الخروج لنزهة ولو قصيرة قال لي أني أفكر كطفلة وهذا لا يليق بعمري، أقف بالساعات في المطبخ لأعد له ما لذ وطاب من الطعام فلا أسمع منه سوى التعليقات السلبية عن الملح الزائد قليلا أو اللحم الذي نضج أكثر من اللازم أو ربما عن كمية ونوع الدسم بالطعام!

اهتم بمعرفة كل صغيرة وكبيرة في حياته، ماذا يحب، وماذا يكره، وأي الألوان يفضل؟ ولم يخطر له ببال ذات مرة أن يسألني كذلك.

لم يكن كل هذا يعنيني بل كنت اختلق له الأعذار وأُمنيَّ نفسي بفهم أسلوب حياته يوما ما، ورغم أني أكثر له الهدايا إلا إنه لم يقدم لي أي هدية، ولا حتى كلمة طيبة تجعلني ابتسم، ظللت اتحمل وأقول لنفسي: اصبري لعله يتغير ويشعر بك فيسعد قلبك ولو بكلمة أو بوردة، أو حتى بقطعة حلوى!

كنت أفضفض مع أمي وتقول لي هذا يحدث دائما مع أي خطيب وخطيبة لا تُصغري عقلك، فغداً تعتادين عليه، وظل رجل أفضل من ظل حيطة.

قطع شرودي صوت أمي تناديني فقد حضر هذا الخطيب ليشاركنا الغداء كأكثر الأيام، أبدلت ملابسي واجتمع ثلاثتنا على المائدة، كان حديثه بارداً مملاً، يقطعه الكثير من الصمت أما لانشغاله بالتهام ما أمامه من ألوان الطعام أو لأن عقله الفقير لم يَجُد عليه بموضوع يتحدث فيه سوى عن تجهيز المنزل والترتيب للزفاف، وغلاء

الأسعار، وكم أهدر من المال في أشياء ليست ضرورية في نظره، لولا تمسكي بها.

كنت أعبث بشرود في الطعام أمامي، ثلاثة أشهر مرت على خطبتنا كقرن من الزمان، كانت الأيام ثقيلة فارغة، خَبَتْ فرحتي واختفت ضحكتي، وتبخرت مع الريح أحلامي، وسألتُ نفسي، هل لابد لي

من الزواج فقط لإرضاء مجتمعنا الشرقي الذي يجعل من المرأة سلعة لها مدة صلاحية تقل كلما زادت بالعمر؟ هل الزواج الذي جعله الله للناس سكينة ورحمة أصبح معركة لابد من الفوز فيها فقط لأنول لقب زوجة؟ لما النظرة المتدنية لمن تخطت الثلاثين دون زوج؟ أي عيب اعتراها؟ وأي ذنب جنته؟ أليس الزواج قسمة ونصيب؟

بعد أن انتهينا من الطعام ذهبنا للسينما بعد إلحاح شديد مني، وهناك انفعلت بأحد المشاهد الرومانسية، وبكيت فما كان منه إلا أن سخر مني، وذكرني بعمري الذي قارب الأربعين وأن الحب ما

هو إلا رفاهية لا تليق بنا، فنحن لسنا مراهقين، بل يجب أن نكون أكثر عقلانية.

في ذاك الوقت، تيقنت أننا نرى الأشياء بمنظورين مختلفين بل متناقضين وهذه مقدمات جيده لزواج فاشل، 38 عاما ليست مبرر لأن أرضى برجل كهذا.. شحيح، يعلق على الكثير من أسئلتي بالصمت أو بلا مبالاة وعدم اهتمام، هو لا يريد زوجة تشاركه حياته بحب وألفة، بل يريد من تعينه على أعباء تكوين أسرة، فشل هو في تحملها وحده رغم بلوغه الخامسة والأربعين، فهل سيكون هذا الزواج سكناً أم سيكون سجناً! وكيف لمن لم يستطع أن يملك قلبي أن أملّكه حريتي؟

وبهدوء شديد أمسكت يده وفتحتها لأضع فيها خاتم الخطوبة، وقلت له:

_ اليوم أدركت أنه من الأفضل أن يفوتني ذاك القطار اللعين بدلا من أن يدهسني، ورغم أني قاربت الأربعين، كما تحب أن تذكرني دائماً فأنا ما زلت استحق الحب.

زواج مبكر

***

على المدق الترابي بين الحقول السوداء التي تمتد على مرمى البصر، حيث الرائحة الخانقة للدخان، المتصاعد من حريق بقايا جذور القصب المتشبثة بالأرض السمراء حتى تصير رماداً أسود، يغزو الحقول، فتصطبغ السماء باللون الرمادي، وتمتد السحب الكثيفة من العتمة وتلقي بظلالها على الطرقات، بل وتكاد تصل لعنان السماء.. اعتدت السير ذهابا وإيابا من المدرسة.

كنت ما زلت بالصف الأول الابتدائي عندما عدت من المدرسة مع أخواتي، لأجري على حضن أمي التي تستقبلنا كعادتها متهللة، بيدين مفتوحتين على أقصاهما، وتسألني كيف قضيت اليوم في المدرسة، وأجيبها بفخر:

_ لقد بُليت بلاءً حسنا فكافأني معلمي، وأمر زملائي بالتصفيق لي.

لكن في ذلك اليوم كان الأمر مختلفا.. فأمي تقف بنصف البيت وصوتها الباكي يعلوا متقطعاً أمام أبي:

_ ولما العجلة؟! ما زالت البنت صغيرة، إنها لم تكمل بعد عامها الخامس عشر، دعها تكمل دراستها أولا.

يجيبها أبي متعجرفاً:

_ وما فائدة التعليم والدراسة للبنت وليس لها إلا بيت زوجها.

تتوسل أمي إليه:

_أرجوك...

يقاطعها أبي قبل أن تكمل ما تريد قوله، فقط بكلمات قليلة، بعدها يدير وجهه بسرعة مغادراً المكان، ليقطع عليها كل سبيل لإكمال الشجار:

_ انتهى الموضوع، ولا رجوع، لقد اتفقت.

يعلو صوت أمي صارخاً:

_ أضقت بابنتك ذرعاً؟.. هذا لا يرضي الله.

يزداد نحيبها فتأتيها جدتي من الداخل مسرعة لتحاول تهدئتها، من خلف دموعها قائلة:

_ لله الأمر بنيتي، فما بأيدينا من شيء، فما أكثر ما تحدثنا إليه دون جدوى.

أقف متحجرة على الباب لا أعي ما يدور بينما تدلف أختي الكبرى، نحو الداخل بعينين شاردتين تدوران في محجريهما، فتتلقفها زوجة أبي، التي كانت تقف من بعيد تراقب بابتسامة باهتة تعلو شفتيها، ويداها في خصرها، وللمرة الأولى، تستقبلنا بفرحة وتحتضن أختي وتقبلها قائلة:

_مبارك، مبارك، ستكونين أجمل عروس يا حبيبتي.

تنظر أختي لأمي متسائلة، فتكمل زوجة أبي بضحكة عالية تستفز بها أمي:

_ألم تخبرك أمك؟ لقد خطبك عمك لابنه واليوم تم الاتفاق على كل شيء.

تصرخ أختي وتجري على أمها تتوسل إليها:

_ لا، أمي، لا أريد الزواج، أريد أن اتعلم.

تواصل أمي البكاء وتهمهم بالحوقلة، فتكمل أختي:

_أمي، لما تصمتين هكذا، قولي له لا، لا أريد.

تحضنها أمي وتنهمر أعينهن بدموع غزار ثارت كبركان لا يتوقف.

في الأسابيع القليلة التالية كان الكل مشغول بتجهيزات العرس.. الشوار، وتجهيز بيت العريس، يوم الحنة وتنظيف البيت وإعداد الطعام والحلوى.

في صباح يوم الزفاف أتت لبيتنا الماشطة وظلت مع العروس التي استسلمت لقدرها خاضعة لرغبة أبيها، ورسمت جاهدةً على شفتيها ابتسامة خفيفة لتهون على أمها التي حبست دموعها مبتهلة لربها أن يسعد ابنتها، التي لا حيلة لها.

تزينت أختي وارتدت الفستان الأبيض فكانت جميلة رقيقة كملاك هبط لتوه من السماء، واكتسى وجهها بحمرة الخجل كلما سمعت إطراء الجميع من حولها على حسنها، ما إن رأيتها وسمعت صوت النساء يعلو بالزغاريد حتى قفزتُ إليها وتعلقتُ برقبتها واحتضنتها

لأقبلها كثيراً حتى اكتست خدودي أيضاً بالمساحيق وكدت أفسد عليها زينتها، فضحك الجميع إلا أمي، التي كانت بالكاد تكتم عبراتها، وتم الزفاف وما زالت أمي توصي زوج أختي بأن يرفق بها مرددة:

_ إنها صغيرة.

وانتقلت أختي للعيش في بيت عمي مع زوجها، وما هي إلا أسابيع قلائل وجاءت أختي تشكو ألماً في ذراعها وكدمةً في وجهها أما قلبها فكان قد مُلئ هماً، فَقَلَّ كلامها، وغابتْ عنها إشراقة وجهها، فقد ضربها زوجها دون رحمة حتى فرت منه لتحتمي ببيت أبيها، استقبلتها أمها بدموعها الحانية التي لا تملك غيرها، وتتردد أدعيتها في صدرها، دون أن يعرف هذا الدعاء طريقه لحلقها ولسانها.

أطعمتها وهونت عليها، وتركتها بغرفتها لتستريح، ومنعتني أدخل إليها كي لا أزعجها بثرثرتي، إلا أنني تسللت ببطء ودلفت إليها، فوجدتها وقد ركنت ظهرها للحائط وضمت قدميها لصدرها، ناظرة خارج النافذة، بفراغ.. لا حزن.. لا ألم.. لا دموع.. فقط فراغ.

عاد أبي لا ليأخذ لها حقها، بل ليعيدها إلي زوجها الغاشم، كما يعاد السجين الفار إلي حبسه مرة أخرى، مردداً ما توارثه أجداده:

_ اكسر للبنت ضلعا، ينشأ لها أربعة وعشرون.

_الدلال يفسد البنات، لم تعد طفلة !

_لابد لها من أن تعتاد حياتها الجديدة.

تكررت تلك الحادثة مراراً، ولم يرحمها زوجها لحملها جنيناً منه في أحشائها، وفي كل مرة يعيدها أبي لبيتها، وذات يوم جاءت تجر قدماها جراً من الإعياء وسقطت أمام الباب لم تكن مرحة كما تعودت منها ولا حتى حزينة كما أصبحت بعد زواجها بل كانت شيئاً، مجرد شيء يتجلى فيه الصراع بين الحياة والموت، كانت تتلوى بما تبقى لها من قوة واهنة في آلامها القاتلة، تدفق منها دماً ساخنا كثيرا وأمي تصرخ: النجدة، انجدوني

اجتمع الجيران وجاء أحدهم بسيارة لنقلها للوحدة الصحية بالقرية، كانت تنزف بقوة، حتى طبيب الوحدة عجز عن إيقاف ذلك النزيف فالوحدة الصحية غير مجهزة بغرفة للطوارئ، فأمر

بنقلها للمشفى في المركز بعد أن حقنها بعدة عقاقير قد تساعدها لكن الأوان قد فات، ففاضت روحها الطاهرة إلى بارئها. وقد فارقت الحياة.

قبضة..

***

استيقظتُ من نومي يعتريني نشاط شديد، نهضتُ من فراشي بمزاج رائق، انتقيت من خزانتي ملابس رائعة، بألوان مبهجة، اتجهت للحمام وأبدلت ملابسي، ومشطت شعري وشرد ذهني قليلا، اليوم أنا على موعد مع سماع خبر سيحسن مزاجي كثيرا ويشعرني بنشوة من نوع خاص، لا أحد غيري يعلمها.

أعددت قهوتي الصباحية وجلست احتسيها في الشرفة باستمتاع، رائحة البن المحوج تدغدغ أنفي، وتشعرني باسترخاء محبب لنفسي.

بعد أن انتهيت من قهوتي أسندت رأسي على ظهر المقعد وأغمضتُ عيني بهدوء لأستدعي بعضا من ذكرياتي..

تذكرتُ يوم عدت من الجامعة، ووجدت أمي تعاني ألما شديدا في صدرها، فقد تشاجر معها خالي لأنها طلبت حقها في ميراثها الشرعي.

أسرعتُ لأمي التي تكاد تختنق، وبأنفاس متلاحقة هرعت لمحاولة إسعافها بتدليك صدرها، وما أن وضعت يدي عليها حتى شعرت بشيء غريب يسري داخل شراييني، ويتجمع في قبضة يدي وكأنها

شحنات كهربية انتقلت مباشرة من يدي لقلبها، وفجأة تحسنت أمي وكأن شيئا لم يكن.

بعد عدة أيام.. قررت مواجهة خالي، فإما أن يرتضي بالحلول الودية أو يرتضي بالقضاء، وكما توقعت احتد على وهمّ بطردي، وقتها شعرت بتلك الشحنات تدفق داخلي من جديد، وأن هناك قوة غريبة تتملكني، وبهدوء اقتربت منه، ووضعت يدي على كتفه وأنا اعتذر منه، وما هي إلا ثواني قليلة وتعرَّق جبينه، وبدأ الشحوب يغزو وجهه، فتركته وعدت للمنزل، ولم أخبر أمي بشيء.

بعد عدة ساعات علمنا أنه تعرض لأزمة قلبية، نقل على أثرها للمشفى، وما هي إلا ثلاثة أيام فقط وفارق الحياة، رحمه الله.

لم اهتم بالأمر، لكن ما شعرت به كان شعوراً غريباً بالفرح ولذة انتصار لا أعلم سببها.

أنهيت دراستي، تزوجت من وقع اختيار قلبي عليه، من بين كل أصدقاء الجامعة الذين توددوا لي بشتى الطرق ومن بين جميع المحيطين بي، لم تكن فقط الجامعة هي التي جمعتني به، بل كان أيضاً يسكن بنفس الشارع وبذلك كان من السهل أن تجمعنا وسائل المواصلات في الذهاب والعودة، طبعا باتفاق مسبق عبر الهاتف أو من خلال الشاشة الزرقاء، هكذا كنا نمضي معظم أوقاتنا معاً، حتى شعرت أنني لم أُخلق إلا لأجله، وهو كذلك خُلق لي .. لي وحدي.

مر العام الأول من زواجنا كنا فيه للسعادة عنوان، حتى اكتشفت أنه على علاقة بأخرى، وأنا لا أطيق أن يقترب من إحداهن، وأبدا لن يكون لغيري، ولأقطع الشك باليقين، قمت بالتجسس على محادثاته عبر توصيل هاتفه بجهاز الحاسوب الشخصي الخاص بي.

وعندما تأكدت من عزمه على الزواج بها سرا، اتخذت قراري بمواجهتها، ومحاوله إبعادها عن زوجي الحبيب.

كان من السهل مقابلتها، فهي وللأسف من صديقاتي المقربات، ذهبت إليها، ودار بيننا نقاش ليس بالطويل، علمتُ منه مدى تمسكها به، فما كان مني غير أني أمسكت بكتفها بشدة، حتى أنها كانت تحاول التخلص من قبضتي، بينما ظهر الألم على وجهها، الذي بدأ يتغير لونه بالتدريج، وتبدلت شفتاها من اللون الوردي للون الأزرق، فتركتها وعدت لمنزلي.

بعد انقضاء أيام ثلاثة.. كنت في طريقي لتقديم واجب العزاء وأنا أبكي صديقتي العزيزة، رحمها الله.

ويا لها من لذة غريبة ومتعة تملكتني، حينما تأكدت أن قبضتي بها قدرة عجيبة لا أعلم متى اكتسبتها ولا كيف، لكن من المؤكد أنها وسيلة جيدة للتخلص من السيئين الذين يعكرون على صفو حياتي، فكلما وجدت أحد العابثين شعرت بقوتي تطفو وصوت ما بداخلي يلح علىّ أن أنظف الدنيا منه، مثل جارتي التي كانت تنعتني بنذير الشؤم بعد أن مات ثلاثة من جيراننا بعد زوجي بنفس

السبب، أزمة قلبية، فلم أبخل عليها بقبضتي عندما جمعنا المصعد وحدنا.

بعد أقل من شهرين من وفاة صديقتي، كان زوجي قد تعرف على أخرى، وبدأ معها قصته الجديدة، ولأنها كانت تسكن بعيداً عني، ومن الصعب مقابلتها قررت أن اختصر الطريق، وتكون قبضتي القادمة من نصيب زوجي الحبيب، هو أولى بها منها، وقد كان.

قطع عليا سيل الذكريات صوت إشعار صدح من هاتفي، تناولت الهاتف بشغف لأجد الخبر الذي كنت انتظره، دخلت غرفتي وأغلقت باب الشرفة جيدا، قفزتُ في الهواء فرحة منتشية، فاليوم وفي الذكرى السنوية الأولى لزوجي الحبيب كان لابد أن أقدم له هدية.. فاليوم أرسلت له حبيبته.

حلم..

***

هل اعترض طريقك في تلك الحياة بعض المواقف الغريبة أو المثيرة التي قد تحول مسار حياتك دون سابق إنذار؟ ودون القدرة -مهما حاولت- على تفسيرها واستيعابها، أو الاقتناع بفرضية حدوثها وعندما تخفق في ذلك لا يكون أمامك إلا أن تقول: إنها إرادة الله؟.

رغم برودة الطقس بشكل ملحوظ وتكاثف السحب الرمادية التي تنذر بسقوط المطر كما هو معتاد في مثل هذا الوقت من العام، إلا أن القمر ظل يصارع من أجل بقائه وإثبات وجوده، فأنفذ خيوطه عنوة ليصل ضيائه لمياه البحر فبدت أمواجه الهادئة متلألئة وكأنها حبات من الفضة نثرت على صفحته لتزيد من بهائه وجماله الذي يأسر النفوس والألباب، ثقلت حركة السيارات وأصبح الطريق شبه خال من المارة وسكنت الأصوات إلا من بعض

النغمات المنبعثة من المقهى الوحيد القريب الذي مازال تتسلل منه الأضواء الملونة التي تشعرك ببعض الحركة والحياة في هذا الطريق، وعلى عكس من

ينشدون الدفء والمشروبات الساخنة ويتدثرون بأثقل الأغطية تحت أسقف بيوتهم، كان هو يهوى السير في مثل هذا الوقت والاستمتاع بهدوء الكورنيش، وينعش صدره بنسيم الهواء البارد وسط لحظات من التأمل والصفاء الذهني، وكثيرا ما تنهال عليه الأفكار ليشحذ بها عقله فتكون نواة لرواية جديدة أو قصة مثيرة من قصصه التي يبرع في كتابتها، وينتظرها الآلاف من قرائه، لكنه اليوم يسير برأسه فارغا تماما من أي أفكار، فقط يتأمل سنين حياته التي تنزلق من بين يديه الواحدة تلو الأخرى كأسنان المشط، برتابة وملل فلا يختلف فيها اليوم عن أمس، ولا ينتظر جديداً سيأتيه غدا، لأربعين سنة وهو يكافح ليتعايش مع الواقع، يرسم بحروفه أجمل قصص العشق ولم يحالفه الحظ أن التقى به يوما، يكتب عن الأمل وجمال الحياة، والعيش من أجل الأخرين، ولن يشعر بقرارة نفسه إلا بوحدته رغم كثرة الملتفين حوله.

تخطى بعض الكتل الحجرية ليقترب أكثر من رائحة اليود التي يعشقها، جلس بحذر مخافة أن ينزلق في الماء، وضغط بخفة على

إحدى ركبتيه التي أصبحت تؤلمه مؤخرا، فتذكر كلمات لأنيس منصور .. بعد الأربعين تبدأ الحياة والروماتيزم أيضاً، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ورفع رأسه نحو السماء يتأمل روعة القمر تارة، ويحاول عبثا عد النجوم وحصرها تارة أخرى، بينما يتسلل إلى مسامعه صوت أم كلثوم آتياً من المقهى تغني..(يا فؤادي لا تسل عن الهوى.. كان صرحا من خيال فهوى) فتتسع ابتسامته ويهز رأسه منتشياً يمينا ويسارا، يغمض عينيه مستمتعا بمداعبة الهواء البارد لوجهه، وفجأة حدث أمرًا غريبا.. خلع عويناته ليهرس عينيه بأصابعه، لعله يحلم ولم يشعر بنفسه حين لفظ هامساً بين شفتيه حلم، فقد خُيل له أن هناك ثمة فتاة تستقيم وتنحني وسط مياه البحر، بشعر أسود طويل يكاد يصل إلى ركبتيها يتطاير خلفها، ولها ذراعان يتحركان في الماء بنعومة وهدوء، قتله الفضول لكي يقترب أكثر ليتحقق من هذا الأمر الغريب، اقترب بخفة لم تخلُ من التوتر خوفا من أن يصدر صوتا

قد يزعجها فتنتبه بأن هناك من يراها فتختفي أو يصيبها الفزع، و إذا بالفتاة تعتدل لتخرج من مياه البحر، حاول جاهداً أن يفتح عينيه أكثر ما يكون ليتأكد هل ما يراه حقيقه أم خيال!!

هل هي إحدى الجنيات أم أنها عروس البحر التي سمع عنها الكثير من حكايات جدته وقد تخطف من يقترب منها.

لم ينتبه جيداً لموضع قدميه حتى غمرتهما المياه، فقد كان مأخوذاً بما يراه، كانت حقاً فتاة في غاية الجمال أو هكذا رآها في ضوء القمر، اقتربت الفتاة منه أكثر والتقت عيناها بعينيه، أسرته بسحرها فاختل توازنه، ليسقط في الماء، فاقدا الوعي، وعندما أفاق وجد نفسه ممداً بالمقهى وقد التف حوله بضعة رجال، فتح عينه يبحث عنها، فلمحها، تقف على بعد خطوات وقد ابتلت بعض ملابسها، فهمس بوهن.. حلم؟

- حملقت به متعجبة.. هل تعرفني؟ كيف عرفتَ اسمي؟

- لا يصدق نفسه، هل حقا تقف أمامه يحدثها، وتتعجب من حديثه؟ بل وأنها حقا تُدعى حلم!

قال: نعم.. بالتأكيد أعرفك فمنذ ولدت وأنا بانتظارك، كم تمنيت لقائك.

_ هل أنت مجنون؟

_ ربما، لا أعرف، ما رأيك أنتِ؟

قالت.. يبدو أنك تعيش بالخيال وتؤمن به.

قال.. بل أؤمن بوجودك أنتِ.

علت ثغرها ابتسامة خجلى واستدارت لترحل.

أوقفها مناديا: حلم..

فتوقفت واستدارت له مرة أخرى فسألها:

- ماذا كنتِ تفعلين بالماء؟

أجابته مبتسمة، كنت أسير بالشارع فمرت بجانبي سيارة تسابق الريح فلوثت قدمي وملابسي بالطين، فأردت أن أنظفهم ولو كنتُ أدري أنني سأبلل ملابسي هكذا لاكتفيت بما لقيت ومضيت.

اعتدل من رقدته وقام ليقترب منها بوهن وقد علت وجهه ابتسامة هادئة: _ بل إنها إرادة الله، لالتقي بك يا حلمي.

نظرت له مندهشة وفغرت فاها

فأكمل.. هل تقبلين أن تكوني حلمي؟

عروسة المولد..

***

وقفت سيارة أجرة أمام بيت قديم، نزلت منها سيدة تتشح بالسواد ومعها طفلة لا تتجاوز العاشرة من عمرها، وقفت السيدة تتأمل البيت ذو الطابق الواحد وقد تساقط معظم طلاءه الذي كان يوما ما أبيضاً، وجدت نوافذه المرتفعة التي تكاد تقترب من السقف مازالت تحتفظ بألوان زجاجها رغم تهشم بعضه، أما واجهة البيت التي تراكمت عليها الأتربة فقد كانت مأوى للعناكب التي نسجت خيوطها بكل أريحية لسنوات دون أن يعكر صفوها أحد.

تمنت لو سمعت خطوات أبيها يتأهب لاستقبالها، فتزفر كل أحزانها بشهيق السعادة وتشرق شمس مجدها بعد سنوات من الحرمان ملأت بالرياح والعواصف، سنوات غربة، ذاقت ويلاتها وحيدة، وحولتها فجأة من الطفولة لسن الرشد.

اقتربت من الباب وأخرجت مفتاحه من حقيبتها ودفعت به في مكانه لكنه استعصى عليها فأخرجته وحاولت مرارا دون فائدة،

فبدأت بركل الباب وهزه بشدة، حتى سمعتها جارتها العجوز فاقتربت منها لتتبين من هي فلما تذكرتها رحبت بها وبطفلتها

واحتضنتها وعيناها تلمع بالعبرات ثم انتزعت الجارة منها المفتاح لتبلله ببعض قطرات الزيت لعله يزيل الصدأ وهي تقول:

_ يا بنتي أصل البيوت كمان ليها عمر، بتعيش بأنفاس الناس اللي بتسكنها، وبتموت يوم ما بيموت أصحابها.

بعد محاولات عديدة فُتح الباب ودخلت الصالة التي امتلأت بالأتربة ورائحة العفن، سعلت ابنتها، أشارت عليها الجارة أن تصطحب الطفلة معها حتى لا تتعرض للأذى، مالت على طفلتها لتمتص رحيق جبينها عله يشفي بعض ما في صدرها من وحشة، أومأت برأسها وطمأنتها أن اذهبي معها.

حاوت أن تضئ النور، لكنها فشلت. فالمصابيح تأبى أن تزيح ظلام دام لسنوات عجاف، امتدت يدها لتفتح النوافذ التي ران عليها صمت ثقيل، دارت أعينها الدامعة أرجاء المكان حتى وقعت على الڤاترينة الزجاجية، وبها الجزء الذي خصصته منذ صغرها لألعابها

فكانت بمثابة مملكتها الصغيرة قبل سنوات، كانت تتوسطها عروسة المولد كما تركتها.

مازالت عروسة المولد بزينتها الورقية الملونة التي تشبه المروحة، قد بهتت فأصبحت أقرب للون الأبيض المتورد ومازال تاجها الملكي يزين رأسها.

حملت عروستها بحرص شديد وجلست على كرسي قريب تتذكر احتفالات المولد، خاصةً الليلة الكبيرة، الليلة الأكثر صخباً والأكثر ذكراً وإنشادا، تخرج مع أبيها في الظهيرة يمشيان كثيرا وسط أهل القرية والقرى المجاورة وإذا تعبت منه يحملها على كتفه حتى يصلوا جميعا لمقام الشيخ الذي تخرج منه الزفة، متشوقين لخروجها يتقدمها الخليفة يمتطي صهوة جواده الأبيض وسط رجال الطرق والمشايخ بجلاليبهم البيضاء وعمائمهم الخضراء الكبيرة، وخلفه ترفرف الإعلام الملونة، وتصدح الموسيقى وتضرب الدفوف والطبول، وتدق الآلات النحاسية بقوة تزلزل القلوب فرحا، ينشدون الأناشيد الجماعية ويمدحون رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كانت تجوب الشوارع مع الزفة ترى العالم من فوق كتف أبيها وهي تشعر بأنها ملكة حيزت لها الدنيا بمن فيها، وبعد عودة الزفة تذهب

معه لتركب المراجيح وتشاهد الأراجوز ويشتري لها الحلوى وحب العزيز والحمص وأيضا عروسة المولد.

كانت تلك هي آخر عروسة لها في بيت والدها، حيث كانت تستعد للزفاف والسفر مع زوجها للخارج، فآثرت أن تحتفظ بالعروسة لتأخذها معها، لكن وسط زحام التحضيرات والتجهيزات للسفر نسيتها، ولم تتذكرها إلا وهي في الطائرة، بكت كثيرا وعندما علم زوجها سبب حزنها نهرها ونعتها بالبلهاء وقال لها أنت لستِ صغيرة، وغدا ستكونين أماً ، يا لكِ من حمقاء .

صمتت ولم ترد لكنها تيقنت أنها في طريقها لحياة جديدة حتما ستكون صعبة مع شريك أصعب.

وبالفعل كانت الأيام تأتي تباعا لتبرهن لها صدق حدسها، وأصعب ما مرت به هو رفض زوجها أن تعود لمصر بعد علمها بمرض أبيها

متعللا بعدم قدرته على ثمن تذكرة السفر الباهظة الثمن، ولم تشفع لها توسلاتها، ولم يرق قلبه لما ذرفته من الدمع الثخين، حتى علمت بموت أبيها دون أن تودعه، مات جزء من قلبها في الغربة.

غرقت في ذكرياتها فلم تنتبه أنها تضم عروستها بقوة، فتحطمت بين يديها لتقع على الأرض وتختلط بالتراب لتدرك ساعتها أن الغربة أخذت منها الكثير، بكت صارخة:

- أريد عروستي..
- أريد أبي ..
- أريد وطني.

الزهايمر

***

تسير هائمة في منتصف الشارع، تحمل بيدها الواهنة أكياساً تحوي بعض الخضروات، دون أن تعبأ بسيل السيارات المتدفق من كلا الاتجاهين، حتى أن بعض قائدي السيارات كانوا يتوقفون تماماً حتى تتمكن من عبور الطريق بسرعة لا تتجاوز سرعة رضيع يحبو، البعض تفيض من أعينهم نظرات العطف والشفقة، والبعض يتأفف ضجرًا ويراقب عقارب ساعته بغيظ، وكأن الوقت داهمه.

بعينين زائغتين وعقل مشوش فاقدة القدرة على التذكر، ظلت تسير على غير هدى في الشوارع المكتظة بالناس من جميع الأشكال والألوان، تحملق في وجوههم لعلها تتعرف على أحدهم دون جدوى فالكل يعرف جيدًا من أين أتى؟ وإلى أين هو ذاهب، فقط هي لا تعرف أي شيء.

قدماها بالكاد تقويان على السير، أنهكهما التعب، وساءت حالتها تماماً ولم تعد تقوى على الاستمرار، جلست في حديقة عامة في أحد الميادين تتابع المارة بذهول، ظلت على هذه الحالة، لم تعرف عدد الساعات التي قضتها في ذلك المكان حتى رأت من تتقدم نحوها بوجه متهلل قائلة:

_أم كريم.. إيه الصدف الحلوة دي، يا حبيبتي والله وحشاني خالص، بس إنتي ليه هنا؟

_ك ك ..كنت بشتري خضار ومش عارفه أروح.

تتلعثم أم كريم بكلامها كأنها طفلة لم تتقن الكلام بعد، لاحظت جارتها ذلك الاضطراب، فطمأنتها وربتت على يديها بحنان، واتصلت بابنها كريم لتخبره بمكان والدته.

ابتاعت لها بعض العصائر والفطائر الخفيفة، وجلست معها تسامرها، تحاول أن تتجاذب معها أطراف الحديث حتى يأتي ابنها، إلا أنها كانت غير متجاوبة معها، لا تتذكر مما تقول إلا الشيء اليسير من ذكريات قديمة.

كان كريم بعمله حينما جاءه اتصال جارته، لينبهه أن ثمة شيء ما تعاني منه والدته، دارت بعض الأفكار في رأسه كالنحلات الدؤوبة، شرد قليلا في أحوال أمه الأخيرة، وتذكر بعض الأشياء الغريبة،

كوجود بعض الأواني في دولاب ملابسه، وبعض الكتب في الثلاجة، وأن تناديه أحياناً باسم والده الذي توفاه الله منذ سنوات خلت، تنسى أسماء أخواته، تسأل عن نفس الشيء عدة مرات، تصمت كثيرا ولا تستطيع الكلام بشكل واضح، كان يُعزي هذا لكبر السن.

لاحظ شروده أحد أصدقاءه فبادر بسؤاله عما يدور في خلده، فانتبه كريم من شروده، على يد كمال تهزه بلطف:

_كريم.. كريم، رحت فين يا عمنا؟ اللي واخد عقلك.

أجابه كريم بنفس شروده دون أن يرتد إليه طرفه:

_ أمي تعبانة، أنا مروح.

_ ألف لا بأس عليها، طب ابقى طمني.

عقد كريم العزم بعرضها على الطبيب، وبعد يومين من البحث والسؤال عن أمهر أطباء الأمراض النفسية والعصبية، استطاع الحجز لها عند أحدهم ليفحصها، وبعد كثير من الفحوصات، طأطأ الطبيب رأسه الذي اشتعل شيبًا، وخلع نظارته ليفرك عينيه ثم قال متنهدًا:

_ للأسف حالة الزهايمر وفي المرحلة الثانية.

_ يعني إيه يا دكتور؟ وليه للأسف؟! مش كل مرض وليه علاج؟

_ الزهايمر زي ما كتير عارفين أنه مرض النسيان بيكون له ثلاث مراحل.. الأولى، بتكون بسيطة، ويمكن تعدي من غير مشاكل واضحة، المرحلة الثانية بتكون أصعب شوية، المريض فيها بيفقد قدرته على النطق بالتدريج وكمان بيفقد السيطرة على حواسه، للأسف مفيش علاج للمرض اللعين ده، كل اللي نقدر نعمله أننا بنوصف بعض المنبهات علشان تأخر من تطور الحالة، مريض الزهايمر يحتاج رعاية واهتمام أكتر من احتياجه للعلاج.

خرج كريم من عيادة الدكتور يحيط والدته التي تمشي الهوينة بذراعيه في حنان، رغم ما ألمّ به من ألم جاهد نفسه ليرسم على وجهه ابتسامة هادئة مطمئنة لأمه الحبيبة، ورغم ما كان يمتلئ به رأسه في تلك اللحظة، أدرك أنه لم يتبق لأمه سوى القليل، وأن أيامها تنساب من يديه كما تنساب حبات الرمال عند القبض عليها، عندما عادا سويًا -ولأول مرة- يساعدها في إعداد العشاء قالت له:

_ السكر خلص ونسيت أجيب.

_ ولا يهمك يا ست الحبايب حالا يكون عندك.

وأحضر لها ورقة كبيرة ولصقها على باب الثلاجة، وعلق بجوارها قلم، ثم قال لها:

_أي حاجة تحتاجيها بعد كده اكتبيها بسرعة، قبل ما تنسي وما تنزليش تاني، أنا هجيب كل الطلبات من هنا ورايح.

_ يابني إنت يا إما في شغلك يا إما مع أصحابك، وأنا ديما لوحدي فبنزل أجيب الطلبات وبالمرة أمشي رجليا.

_ حقك عليا يا ست الحبايب، من هنا ورايح هحاول أقعد معاكي لحد ما تزهقي مني.

_ أسمع كلامك أصدقك، أشوف أمورك استعجب!

_ كدا برضوا يا أمي، طب بكرا تشوفي، أنا نازل أجيب السكر، عايزه حاجة تاني؟

بعد أن أنهى كريم عشاءه مع أمه، وخلدت هي للنوم، استلقى ممددًا في سريره، وقد جفاه النوم، لانشغاله بما آلت إليه حالتها الصحية، يفكر بكلام الطبيب، يعاتب نفسه على انشغاله دوما عنها، كم مرة طلبت منه أن يشاركها الطعام؛ فكان يفضل أصدقائه عليها، خاف كثيرا من ذلك اليوم الذي يغيب فيه صوتها، خاف أن يناديها يوما فلا يسمع سوى صدى صوته، لكنه انتبه لرحمة ربه، فما زالت هناك فرصة، ليعوضها ولو قليلا عن إهماله لها، تعصف بذهنه الأفكار عن كيفية العناية بها، فكر أن يتصل بأختيه طلباً للمساعدة، لكنه التمس لهما العذر، فأخته الكبرى تعمل ولديها أطفال وبالكاد تستطيع أن تأتي لزيارتها مرة كل أسبوع وربما

أسبوعين، أما الصغرى وهي ربة منزل، لكنها تسكن بعيدا مع زوجها وطفليها وقد تأتي لقضاء بضعة أيام، إذاً لا مفر من تحمل المسؤولية كاملة، والله المستعان، قام ليفتح حاسوبه الشخصي، حرك مؤشر البحث ليكتب (الزهايمر)، قرأ الكثير عن ذلك المرض الصامت الذي يتسلل لدماغ ضحيته لتبدأ رحلة التوهان.

غرق كريم حتى أذنيه في الإنترنت ليتعرف على تطورات هذا المرض، ليستعد له، قطع حبل أفكاره رنين هاتفه المحمول الذي أظهر له اسم كمال صديقه على الشاشة الصغيرة فتناول الهاتف ليجيب:

_ ألو .. أيوا يا كمال.

_ إزيك يا كريم، أخبار والدتك إيه طمني.

_ ياريت يا كمال أقدر أطمنك وأطمن نفسي بس الموضوع صعب.

_ خير يا كريم، قلقتني يبني فيه إيه.

_ أمي عندها الزهايمر يعني هيجي وقت ومش هتعرف حتى اسمها.

_ لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وهتعمل إيه؟ دي عايزة رعاية كبيرة وإنت لو قدرت النهاردة مش هتقدر بكرا.

_ يعنى أعمل إيه بس؟_ اسمع يا كريم، إنت لازم تتجوز

_ أتجوز إيه بس، أنا في إيه وإنت بتقول إيه!

_ تتجوز وتجيب واحدة بنت حلال تقعد مع والدتك وإنت في شغلك ولا تحجزلها ف دار رعاية؟

_ دار رعاية إيه؟ أنا برضو هرمي أمي يا كمال.

_ مين بس قال إنك هترميها لا سمح الله، أنا اقصد إن هناك هتكون مطمئن عليها، وفيه ناس فاهمة حالتها وقادرة تتعامل معاها.

_ لا طبعاً، مستحيل أتخلى عنها في مرضها.

_ المرض دا عايز متابعة ٢٤ساعة وإنت بتكون ف شغلك طول النهار، هتسبها لوحدها؟

_ بفكر أجيب لها مرافقة تراعيها وأنا مش موجود.

_ فكرة حلوة، يا ريت تلاقي، وربنا يعينك ويشفيها، وإذا احتجت أي حاجة كلمني.

_ شكرًا يا كمال مع السلامة.

أعلن كريم عبر صفحات الفيس بوك عن حاجة والدته لمرافقة تقضي معها ساعات النهار، مقابل راتب شهري، فتواصلت معه الكثيرات وبالفعل وقع اختياره على إحداهن، وبدأت عملها، وبدأت معها المشاكل..

الأم لا تريدها، لا تعرفها، تنعتها بالخاطفة المحتالة، تصرخ عليها أحياناً، تنهال عليها بالسب، تلقى عليها بالتهم، فمرة تقول أنها سرقت منها مالها، وأخرى تقول أنها لم تطعمني وهكذا كل يوم.

فكر كريم بنصيحة صديقه كمال، وقرر الزواج من جارته التي يميل قلبه لها وكانت تبادله بعض المشاعر، إلا أنه صارحها بمرض أمه،

فقبلت مشاركته رعايتها، وتم الزواج، وكان هو الذي يتولى شؤون أمه كاملة قدر الإمكان، ويترك لزوجته الاهتمام بأمور المنزل المختلفة.

في بداية الأمر كان كريم يشعر بالضجر لتغيير نظام حياته، لكنه مع الوقت اعتاد وضعه الجديد بجانب أمه لتلبية كل احتياجاتها، فقد كانت حالتها تسوء يومًا بعد يوم، تسأله كثيراً:

_أبوك رجع من شغله ولا لسه؟

فيجيبها كريم بنظرة شفقة:

_ أبويا مات من عشر سنين يا ماما.

فتصرخ فيه لتؤدبه:

_ عيب عليك تقول كدا على بابا، ليه الفال الوحش ده؟ دا كان لسه هنا من شوية وحالا هيرجع.

يصمت كريم ولا يدخل معها في مهاترات، يعلم جيدا أنها تعيش في دنيا أخرى غير دنياه، فحتى جده وجدته اللذان ماتا من نصف قرن لا يزالان على قيد الحياة في دنياها، تحادثهم وتسمع لهم، تتذكر أحداثًا حدثت من سنوات ولا تتذكر ما حدث من ساعة فقط.

ذات يوم استيقظ كريم وزوجته من نومهما على صرخات أمه التي شقت سكون الليل، فقد سقطت بالحمام والْتَّوَتْ قدمها فكانت تصرخ بشدة، غير متحملة آلامها، حملها ليذهب بها للمشفى، وتم عمل جبيرة لقدمها، ومنعها الطبيب من الحركة.

حاول كريم التعايش مع واقع لا تزيده الأيام إلا سوءًا، ظل طوال الليل بجوار والدته التي راحت في سبات عميق بعد تناولها جرعة المسكن والمنوم حسب إرشادات الطبيب، ظل يتأمل أمه التي انكمشت في سريرها كسلحفاة عجوز، وقد فقدت الكثير من وزنها في شهورها الأخيرة، يمسح حبات العرق بكلتا يديه عن وجهها الذي غزته التجاعيد، يتابع صدرها الذي يعلو ويهبط..

توضأ وجلس على مصلاه يتلو ما تيسر له من القرآن الكريم حتى وصل لسورة لقمان فقرأ كلمات الله التي توصيه بالإحسان إلى والديه، لم يستطع كبح دموعه فانسابت على وجنتيه حارة.

تذكر كم كانت أمه تتفانى في تربيته وتتحمل الألم ليرتاح، ظل هكذا حتى كاد الليل أن ينقضي فغفت عيناه، حتى أيقظه صوت المؤذن الذي ارتفع في هدأة الليل ليعلن ميلاد يوم جديد.

انتبه من غفوته ليُسرع إلى حمل أمه ووضعها على الكرسي المتحرك، يربت على يديها بحنان، يذهب بها ليساعدها في قضاء حاجتها، يتولى بنفسه نظافتها الشخصية وتبديل ملابسها، وهي لا تعرفه وتصرخ بوجهه أحياناً:

_إنت مين؟

فيضحك ويردد:

_كريم.. كريم.. كريم يا ماما.

بمرور الأيام، اعتادت أمه عليه رغم فقدها للنطق تدريجيًا، إلا أنها كانت تبتسم وتتهلل أساريرها لمرآه وتقلب نظرها في وجهه وتبكي كطفلة إذا غاب عنها، هي لا تتذكره، لكنها تشعر بحبه وحنانه، يردد في سره: سبحان الله، قد يفقد العقل الذاكرة، لكن القلب لا زهايمر له.

يعلم ما في الأرحام

***

يضطجع على كرسي بلاستيك بجوار سرير أبيض ترقد عليه زوجته، تفتح عينيها البندقيتن، آذان الفجر يتسلل بخشوع عبر النافذة الزجاجية يدعو للصلاة..

يوم جديد على وشك أن يبدأ، لكنه ليس يوماً اعتياديا، تمنته وانتظرته لأكثر من عشر سنوات.. تُرى ماذا ينتظرها به من مفاجآت؟ هل سيكون هو يوم سعادتها وتحقيق حلمها؟ أم ماذا؟ إحساس غريب، بين خوف ورجاء، بين ألم وأمل، مشاعر متضاربة لكنها اعتادتها وتعيشها منذ ستة أشهر.

أفاق في هدأة الليل على زوجته تسحب كفها الذي رقد بين كفيه الحانية قبل سويعات قليلة غفا فيها رغما عنه، فقد أنهكه التعب وطول السهر بمرافقة زوجته التي هي على وشك الولادة، فقام يفرك عينيه قائلا بلهفة:

_ تشعرين بشيء حبيبتي؟

اعتدلت قليلا متثاقلة بمساعدة زوجها الحبيب وقالت بأنفاس متلاحقة:

_ لا، أنا بخير والحمد لله، لكنه الأذان.

_حسنًا، سأذهب لألحق بالجماعة في المصلى القريب وأعود بسرعة.

_ في حفظ الله، ولا تنسى الدعاء.

_ وهل لنا من باب نطرقه غيره، الله المستعان.

كلمات نطقها وهو يبتعد عن زوجته، من حنجرةٍ مختنقة بغصة ألم لا يعلمه إلا الله.

أراحت رأسها على وسادتها، أغمضت عيناها المجهدتان لتترك العنان لومضات من ذكريات ترجع لأعوام مضت، بداية من فرحتها بزواجهما بعد قصة حب طويلة، ومرورا بزيارتهما لعيادات مختلف الأطباء في رحلة بحث طويلة عن سبب تأخر إنجابهما

لطفل يكون ثمرة لهذا الحب، يفرح به زوجها ويشد من أذره.. يحمل اسمه..

تشرق له الشمس كل صباح، فيركض ويلعب، ليملأ دنياهما سعادة وبهجة.

دامت هذه الرحلة المؤلمة، الشاقة لسنوات عشر، حتى استجاب الله لدعائهما وتضرعهما، أوشك الحلم على التحقق، حين شعرت بالحمل وأحست بجنينها يتحرك في أحشائها بعد إجرائها لعملية ناجحة للحقن المجهري.

ابتسمت منى ابتسامة مريرة وهي تضع يدها على بطنها المنتفخ، تتذكر كيف كانت فرحتها عند معرفتها بنجاح عملية الحقن المجهري، كيف كان شعورها مع أول حركة للجنين، كيف كانت تراقب علو بطنها يوماً بعد يوم بسعادة، كيف سجد زوجها شكراً لله ودموعه تبلل وجهه، كم مرة خططا لمراسم وطقوس الاحتفال بالمولود، وكم مرة اختلفا فيه على اسم المولود، وهما يتوقعان نوعه، كيف رسما ملامحه وتخيلا شكله..

حانت اللحظة المنتظرة بعد ثلاثة أشهر من الحمل لرؤية هذا الجنين من خلال التصوير التلفزيوني (السونار) ما زالت تشعر بقشعريرة جسدها حين مس بطنها لأول مرة ذاك السائل اللزج بعد أن استلقت على سرير الكشف بنشوة عارمة، ومعها زوجها يحتضن كفها بكل ما أوتي من حب، وقلبه يرقص فرحاً بالمولود الذي كاد يراه ويسمع نبضات قلبه الصغير.

أتى الطبيب الذي يتابع حملها ليشاركهما فرحتهما بوجه بشوش، ويتبادل معهما النكات بشأن الولد الذي أثلج صدرهما، لكن سرعان ما تغير وجهه وظهرت عليه علامات الذعر، بعدما حدق في تلك الشاشة التي يتابع من خلالها صورة الجنين، ثم هز رأسه يمينا ويسارا، وكأنه لا يصدق ما يراه، أعاد النظر لمرات ومرات، وكلما حدق في الشاشة ازداد اتساع حدقتيه، كاد قلبيهما أن ينفطرا قلقا على وليدهما، وأخذا يسألان في خوف:

_ما الخطب؟ هل هناك مكروه؟

والطبيب لا يجيب سوى بكلمة واحدة لا غير:

_خير، خير إن شاء الله.

ثم اتصل بزميل له ليحضر ويستشيره في هذا الأمر، فأتاه الآخر مهرولا، تتردد بينهما بعض الكلمات والمصطلحات باللغة الإنجليزية، لم يفهم عادل منها شيئا، فقط كان يجوب بنظره بين

الطبيبين والشاشة يجاهد أن يفهم شيئا، ثم يعود ليرسم ابتسامة مصطنعة يحاول بها أن يطمئن زوجته، طال الحديث بين الطبيبين بالإنجليزية، ثم قررا عرض "منى" على طبيب آخر للتأكد من شكوكهما، فأجمع الأطباء على مصارحتها بالأمر..

طأطأ الطبيب رأسه وشبك أصابعه، ثم زفر بتنهيدة وقال:

_ أعلم أنكما انتظرتما هذا الولد لسنوات عشر، ولكن يؤسفني أن أقول لكما أن هذا الجنين قد يولد مشوها، فما نراه ليس بطبيعي.

ثم قام الطبيب من مكانه ليشير على صورة مطبوعة للسونار بجواره، وأكمل قائلا:

_ كما ترون لجسم هذا الجنين زوائد عديدة، ليست بأطراف معتادة، قد يكون توأم ملتصق، وقد يكون غير ذلك، الله أعلم،

لكنه حتما سيولد مشوها، ومن الأفضل أن تتخذا قراركما بالإجهاض في أقرب وقت، وإلا كان هناك خطر على الأم بسبب زيادة حجمه السريعة، وإصابتها بسكر الحمل، وعلى الله عوضكما.

نزلت كلمات الطبيب عليهما كالصاعقة، فلم تحتمل منى ما سمعته، فسقطت مغشيا عليها، وبعد أن استعادت وعيها، صرخت:

_لا، لا، لن أقتله بيدي، كيف لي أن أقتل فلذة كبدي وحلم عمري، إن هذا لهو الجنون بعينه، إن قدَّر الله له الموت فاللهم لا اعتراض على حكمه وقدره، لكن لن أحرمه من حياة وهبها الله له.

حاول عادل تهدئتها فضمها لصدره ودموعه تحرق وجنتيه، وأحاطها بذراعيه بقوة، يريد أن يستمد الصبر من جسدها الضعيف، ليتحمل ما سيخطه له القدر، مرددا:

_العوض على الله، العوض على الله دائماً.

عادا سويا لمنزلهما يجثم الصمت عليهما، ذابت تلك الفرحة والسعادة التي كانت عنوانهما لثلاثة أشهر مضت، فقدا طعم لذة

الإنجاب ثانيةً، وأصبح حلمهما بعيد المنال، كاد القلق والخوف يبتلعهما كما يبتلع الثعبان فريسته، ثقل عليهما الليل وطال، دون أن يغمض لأحدهما جفن، الخوف من المجهول، ترى هل كُتب على عادل أن يفقد ابنه، أم يفقد زوجته؟ أم يفقدهما معا؟ هل يجبرها على الإجهاض، ويعيش ما بقي له من عمر دون أمل؟ أم يتركها تحتفظ بجنينها وينتظر هلاكه وهلاكها كل يوم؟

ارتجفت منى خوفاً وحزنا لمجرد تخيلها لدخولها حجرة العمليات وتكبدها لآلام فتح البطن وآلام الولادة القيصرية الكاملة، ثم تخرج بعد ذلك بيديها فارغتين دون طفل، لم تجد لها ملاذا سوى خالقها، وحصنها الذي لا يرام، تناجيه باكية بكلمة واحدة (يا رب) وتستخيره فهو يعلم ما في الأرحام، تناولت مصحفها وقرأت الكثير من السور والآيات، قرأتها بقلبها قبل لسانها وعينيها، ذرفت الدموع الغزار، وما زالت تلهج بالدعاء والرجاء حتى أحست بالرضا والصبر، أحسنت ظنها بالله وقررت أن تحتفظ بجنينها، وليكن ما يكون.

بعد أن أكملت شهورها التسعة بكثير من القلق والمعاناة، آن لها أن تضع وليدها بعد ساعات قليلة.

عاد عادل من الصلاة، رأى دموع زوجته قد رطبت وسادتها، طبع قبلة حانية على جبينها، وقال لها بشفقة: يعلم ما في الأرحام.

_ لماذا تبكين الآن حبيبتي، أوليس هذا هو خيارك؟

_ كيف لي أن أقتل طفل بريء ليس له ذنب، روح من حقه أن يحيا.

_ يحيا معاقا؟... مشوها؟

_كنا نتمنى ظفر طفل، وعندما مَنَّ الله به علينا نقتله؟ نعترض على قضائه؟

_لسنا نحن من اعترضنا، إنه الطب.

_فوق كل ذي علم عليم.

دق الباب دقات خفيفة، لتدخل الممرضة، ملقية التحية بوجه باسم صبوح لتسحب الأنابيب الطبية من يدها وتنقلها على الكرسي المتحرك لإجراء القيصرية، احتضنها عادل بحنان واغرورقت عيناه، واستودعها الله الذي لا تضيع عنده الودائع،

وقف ينتظرها عند باب غرفة العمليات، ولسانه لا يفتر عن ترديد الأدعية وآيات الذكر الحكيم، وهو غارق في قيعان من الحيرة، ودموعه تنزل ببطء، ينظر للباب لا يعلم ما يستره له؟ هل بفتحه ستعلو الضحكات، ويتقبل التهاني؟ أم تكون الصرخات، ويتقبل التعازي؟ كانت أشد لحظاته ضعفا وانكسارا، شعر بأن الدنيا أغلقت أبوابها في وجهه، ولوهلة فقد الأمل بنجاة حبيبته، واعتصر الألم قلبه، فاستغفر الله واستعاذ به من الشيطان الرجيم، وصرخ مستجيراً بربه:

_رحماك ربي، رحماك.

فُتح الباب، حبس أنفاسه في انتظار المجهول، ليخرج الطبيب مرددا:

_معجزة، إنها معجزة، لقد رُزقت بثلاثة توائم، ابنه وولدين، وجميعهم بخير وكذلك الأم في أحسن حال والحمد لله.

بعد عشر سنوات أخرى كان عادل ومنى على موعد لحضور حفل تكريم أبنائهم الثلاثة (عمر وعلي وخديجة) في مسابقة لختم القرآن الكريم.

وبعد خمس عشرة سنة أخرى كان ينتظرهما احتفالا آخر، زواج ولديهما (عمر وعلي) بعد أن تزوجت أختهما (خديجة) وأصبحت أما لطفل جميل، تجمعت العائلة الكبيرة، يلتقطون صورة تذكارية جميلة، ضمت عادل الذي حمل حفيده الأول وطوقته ابنته وزوجها بذراعيهما بعد أن وضعا قبلة على جبين منى.

أبي يكذب

***

أصارع الموت وأطياف الجنيات تتراقص أمامي، لا أرى سوى ظلام الموت الذي بات أقرب إليَّ من حبل الوريد، للحظات تذكرت أبي الذي ظل لسنوات تكبد فيها عناء تعليمي أنا وإخوتي راسما بسمة لم تغب عن شفتيه اللتان أثقلهما التعب.

لم أكن أعلم أن أبي كان يتجلد ويكذب علينا طوال الوقت ويخبرنا بأنه في أحسن حال، وهو يرسم لنا الأحلام لمستقبل مشرق، ويقود بنا سفينة الحياة بعزيمة الربان القوي.

تسير السفينة بنا حتى أحمل شهادتي الجامعية، وكأنها صك الغفران لتخلصنا من الفقر وذل السؤال وقلة ذات اليد.

أضع شهادتي الجامعية في كيس بلاستيكي مع ما تبقى من رفات وطن ليس لي به مكان، وطن ماتت فيه الأحلام والأمنيات وأهيل عليها التراب، وطن ضاعت فيه العدالة والكرامة.. وطن دفعني

لألقي بنفسي للبحر.. للمجهول، فإما الحلم الأوربي وإما أن أكون وجبة للأسماك، أو أن يتقيأني البحر كما تقيأني وطني جثة هامدة على الشاطئ.

أعياني التعب وأنا أسبح منذ ساعات على غير هدى، أسمع صوت أبي.. أرى وجه أمي أشعر بدموع حبيبتي، تختلط دموعي الملتهبة بمياه البحر الباردة، أغمض عيني واستسلم لمصيري.

ابتسم بمرارة حين أتذكر أنني أيضاً كذبت على أبي، فقد أخبرته أنني سأسافر جواً.

غربة روح

***

هبت رياح الشتاء الباردة، تحمل مطرا خفيفا، جعلت الهواء شفافا شجيا، وتحت الرذاذ الهابط، لمعت أوراق الأشجار الخضراء مغسولة متلألئة ترشح بالمطر.

راحت الشمس تلملم ما تبقى لها من خيوط واهنة، استعدادا للحظة الغروب، حيث تلونت السماء باحمرار الشفق، الشارع يضم الكثير من المارة.. فهناك مَنْ يتأمل هذا الجو البديع ويستمتع به، ومَنْ يسرع الخطى ليحتمي بدفء بيته وآخر يسير منتشياً متلفعاً بمعطفه الثقيل، يرفع رأسه للسماء لتداعب وجهه ببضع قطرات، قائلا لمن يسير بجواره:

_ ما أعذب الغروب تحت المطر أنا أعشق هذا الطقس!

قالها ومضى، فسمعه أحد الجالسين على جانب الطريق فابتسم ابتسامة مريرة وهمس لنفسه نعم ما أعذب هذا الطقس لمن له بيتا يأويه.

كانت همسته تلك تصريحاً مباشراً لعينيه لتذرفان الدموع، دموع لا يعلم بها إلا خالقها دموع ملتهبة على جسد بارد لا يستره إلا البالي من الثياب الرثة وبدأ عقله في اجترار الكثير والكثير من الذكريات التي لا يملك سواها من حطام الدنيا، فقد كان هذا الذي لم يتجاوز الثلاثة عشر ربيعا ذات يوم ينعم بدفء بيت وأب عطوف...

هكذا أخبروه، يحاول كل ليل أن يتذكر وجهه فلا يقوى، كل ما يتذكره ، هو شبح لرجل مسجى على فراش الموت تلتف من حوله نساء متشحات بالسواد، تتوسطهم الأم التي سرعان ما قررت أن تنجوا بنفسها من شبح الجوع والفقر، وتتزوج ممن يعولها.

أما طفلها فليذهب إلى عمه أو خاله، أو حتى إلى الجحيم، لا يهم، وقد كان قرار الأم كاللعنة التي أصابته، فمن يتحمل طفل تخلت عنه أمه؟!

تنقل كثيراً بين البيوت حتى وجد نفسه وحيدا كغصن بتر من شجرة بلا أب.. بلا أم.. حتى بلا وطن، أسلم نفسه لدروب الأرض يتربصه الجوع، جلس على الطرقات يتسول طعام يومه.

مرت الساعات، أوغل الليل وخفت الجلبة، وما زال منكمشاً في مكانه وحيداً يحدق في الفراغ ويبكي غربته وألمه، يتساءل هل سأظل هكذا حتى أموت منبوذاً ككلب ضال؟ أم سأنجو وأكمل رحلة حياتي؟ لكن كيف بلا مأوى ولا ملجأ ألوذ إليه؟! وبرفقة من؟ وأين؟ وأي طريق سأسلك؟!

هبت موجة صقيع، وتكاثرت السحب القاتمة في السماء وازداد هزيم المطر، وجلجلة الرعد، فنهض من مكانه عارجاً على أحاسيسه العامرة بالحزن الذي تنوأ عن حمله الجبال الرواسي، لابد من البحث على مكان يقضي فيه ليلته، وعلى عكس الجميع كان يبحث بعيدا عن الأضواء فلا مكان له إلا في الظلام، ظل يبحث طويلا حتى ظفر بمبنى أغلقت أبوابه فهرع إلى حاويات القمامة ينتقي منها بعض الكراتين الذي سيفترشها لتقيه برودة السلالم الرخامية، وبهدوء افترش الأرض، والتحف السماء، وفي صمت

وسكينة أولى ظهره للشارع وللدنيا بأثرها وتكور منطوياً على نفسه في وضعية جنين لم يخرج للدنيا بعد وتمنى لو يستطيع أن ينام ولو سويعات بلا أحلام، أغمض عينيه وغفا.

المعطف الأبيض

***

اخترقت شمس الشتاء الواهنة تلك النافذة الزجاجية العريضة لتملأ بنورها حجرة واسعة تراص أثاثها بعناية فائقة، حول سرير وثير ترقد عليه عشرينية جميلة، يعلن منبه الهاتف برنينه المتقطع أنها العاشرة صباحاً، تململت بهدوء في فراشها وتقلبت يمينا ويسارا وهي ما زالت مغمضة العينين ثم فتحتهم ببطء وهي تتحسس هاتفها.. أغلقته في محاولة منها للعودة للنوم من جديد، لكنها تذكرت هدية والدها الحبيب التي ترقد على الكرسي المجاور قامت وفتحت الحقيبة الأنيقة لتخرج منها معطفاً أبيضاً نُقشت عليه زهرات نيلية صغيرة، ثمنه يحتاج لرقم كبير بعدة أصفار من العملة الخضراء، فقد تم طلبه خصيصاً لها من الخارج، ولما لا وهي الابنة الوحيدة للحاج حسين رجل الأعمال الشهير.

هبتْ من فراشها واقفة على قدميها التي تعاني إحداهما من عرجة خفيفة خلفها لها حادث أليم منذ سنوات كاد يفقدها حياتها، ما

زالت حتى الآن تجري الجراحات الواحدة تلو الأخرى حتى استطاعت أخيراً الوقوف عليها هكذا.

ارتدت المعطف لتنظر لمرآتها بزهو، تدخل أمها تبسمل وتكبر وتغدق عليها عبارات الثناء لجمالها الفاتن الذي زاده ذاك المعطف الأبيض رونقاً وبهاءً، تخبرها علياء أنها سترتديه اليوم في حفل زفاف صديقتها، تنظر لها أمها بدمعة ترقرقت بعينيها قائلة:

_ متى أرى حفل زفافك حبيبتي، لكم تمنيت هذا اليوم ودعوت الله لأجله كثيراً.

تنهدت علياء واقتربت خطوات بطيئة من أمها لتداعب خدها بحنان قائلة:

_ ألا تملين البكاء يا أم علياء؟

_ كل من هن بمثل عمرك تزوجن وأنجبن ولداً أو اثنين، وأنتِ لا توافقين حتى بالجلوس مع من يأتي طالباً يدك.

_ أمي الحبيبة، لا أريد نظرة شفقة من أحد.

_ أي شفقة بنيتي وكلهم يتمنون لكِ الرضا؟

_ تدرين جيداً لما، لأنني ابنة الحاج حسين، البنك المتحرك.

تمسح الأم بطرف إبهامها دمعة فرت هاربة من حبس جفنها، وقالت متصنعة الابتسام لتغيير الموضوع:

_ هيا أيتها الشقية لنتناول الإفطار معاً، فلن أفطر وحدي، فلقد خرج والدك مبكرًا اليوم دون أن يفطر كعادته.

بعد غياب وهج الغروب، توقفت السيارة بحديقة فيلا صغيرة خاوية على عروشها، بمنطقة نائية بالإسكندرية ينزل منها الحاج حسين، رجل خمسيني ذو لحية قصيرة، اشتعل فيها الشيب، يحمل بيده حقيبة سوداء، يدخل الفيلا متصنعاً الهدوء بعدما تلفت يميناً ويساراً، لكن شيئا ما بداخله يرتعش خوفا، يجوب ردهات الفيلا قلقا، يفرك يده بعضها ببعض وهو مشغول الفكر، ينظر في ساعته السويسرية عشرات المرات في الدقيقة الواحدة، ليهرب من عجلات الوقت الثقيلة، ترك لنفسه العنان ليعود بذاكرته لعدة سنوات.. تذكر يوم تعرضت ابنته لحادث سير،

وكادت تفقد إحدى قدميها لعدم قدرته على توفير نفقات العملية، وإذا بأبي عمار صديقه القديم يزوره بالمشفى ليعرض عليه المساعدة مقابل ما يُطلب منه، منذ ذلك الوقت وهو لا يستطيع الرفض، لا يستطيع النوم، لا يستطيع الإجابة على آلاف الأسئلة التي تعصف بعقله ليل نهار..

إلى متى سيظل عبداً لهم، عليهم الأمر وعليه الطاعة؟

هل سيأتي ذاك اليوم الذي يخافه، يوم تعرف ابنته حقيقته؟

هل ستقدر تضحيته من أجل إنقاذها؟

يفيق من شروده على صوت هاتفه يعلن عن وصول رسالة من كلمة واحدة (الآن)...

يأخذ نفساً عميقاً.. يتمتم بكلمات غير مسموعة وهو مغمض العينين، رافعاً وجهه للسماء، بطيئاً يفتح حقيبته ليخرج منها هاتف صغير، يخرجه من علبته للمرة الأولى، ثم يضع فيه شريحة جديدة يسجل عليها رقماً واحداً لا غير ويجعل له نغمة رنين خاصة..

الآن انتهى من وضع اللمسات النهائية لهدفه، ولم يتبق إلا أن يتصل برقمه الوحيد بالهاتف.

بعد قليل يجلس أمام التلفاز يتابع الأخبار باهتمام، ترتعش يده قليلاً لكنه يحسم أمره، فيمسك بهاتفه ليتصل بالرقم الوحيد المدون عليه، ثم يُخرج الشريحة مرة أخرى بأصابع مرتعشة، ليحطمها إلى أجزاء صغيرة، الآن قد أنجز مهمته على خير وجه كما أمروه، لكنه ما زال قلقاً، أمسك بجهاز تحكم التلفاز ليتابع الاخبار..

خبر عاجل

انفجار هائل استهدف الكنيسة المرقسية بالإسكندرية منذ دقائق بالتزامن مع احتفالها بزفاف جماعي، وقد أسفر الحادث عن وقوع الكثير من الضحايا، هذا وسنوافيكم بتفاصيل الحادث عما قريب.

بوجه عابس، يتابع صور الحادث.. تزاحمت الشرطة والناس ورجال الصحافة، ومصورو المحطات الفضائية، سكتت الأجراس وارتفع عويل سيارات الإسعاف، يملأ المكان صراخ الجرحى والمفجوعين، دماء تجري، أشلاء يصعب حصرها، تداعي الحطام

فوق رؤوس الجميع، اختلطت الدماء بالدموع، لكن عجبا.. وسط هذه الدماء الحمراء التي سالت هنا وهناك، التقطت عدسة الأخبار لقطة لبقعة قماش بيضاء تزينها زهور صغيرة باللون الأزرق، لم تلوثها الدماء كثيراً رغم تحول الجسد الذي بداخلها إلي جثة هامدة، إنه يشبه معطف ابنته الأبيض.

لكن لا، فالمعاطف كثيرة وقد تتشابه.

يساوره الشك، يلتقط هاتفه، يتصل بابنته فلا تجيب، يتصل بزوجته يسألها، أين علياء؟ تجيب من الطرف الآخر:

_ في حفل زفاف ماريان صديقتها بالجامعة.

يسقط منه الهاتف، يصرخ مفجوعاً:

_ ابنتي ..

المعطف الأبيض!

ثريـا..

***

تكاثفت السحب، تزيد الكآبة، وتخنق الأنفاس، عادت ثريا لشقتها مع أختها زينب التي أبت أن تتركها وحيدة في هذا اليوم العصيب، بعد انتهاء مراسم دفن حماتها، التي بكتها كما لم تبك أحدا من قبل، حتى أنها انهارت أكثر من مرة، وفقدت الوعي أثناء مواراتها التراب في مثواها الأخير، فكانت تردد:

_كانت عزيزة على قلبي كأمي تماما.. كيف يختطفها الموت مني؟!

كيف أحيا بدونها؟! آاه يا زوجي العزيز.. كيف سيكون حالك عندما تعود ولا تجدها؟! كيف ستتحمل أن تدفن والدتك وأنت بعيد عنها، ولم يكتب لك الله أن تودعها، وتلقي عليها نظرة الوداع الأخيرة.

كانت تنوح، وتنتحب دون توقف، فتواسيها النساء من حولها ويحاولن التخفيف عنها بتذكيرها بقضاء الله وقدره، ويطلبون منها أن تتصبر بكلمات الله، فتردد بألم بينما تنهمر دموعها على خديها:

_ إنا لله وإنا إليه راجعون.

جلست في قاعة المناسبات لتتقبل العزاء من الأهل والجيران، غير أنها كانت منهكة من الحزن والبكاء فلم تستطع الرد أو الانتباه لمن تواسيها، واكتفت بإيماءات خفيفة من عينيها التي أثقلتهما الدموع الحارقة، أحيانا كان يتعالى صوت نحيبها، بل وأحيانا أخرى تخرج منها شهقات وآهات تكاد تمزق الضلوع.

جلست ثريا مع أختها زينب أخيرا في غرفة المعيشة، لتستريحان من عناء يومهما، ثم طلبت زينب من ثريا أن تأخذ حماما ساخنا، وتبدل ملابسها حتى تحضر لها الطعام، فهي لم تأكل شيئا منذ الصباح، قالت لها ثريا: أنها لا تستطيع، هي تريد أن تستريح قليلا، وستدخل حجرة المرحومة لتنعم بذكراها وتشم رائحتها قبل أن تفقدها كما فقدت حماتها.

زينب:

_البقاء لله يا ثريا ادعي لها بالرحمة والمغفرة.

ثريا وقد أجهشت بالبكاء:

_ كانت أكثر من أم لي.

زينب:

_ سبحان مغير الأحوال! أتعجب كيف تغيرت المرحومة هكذا فجأة، وبعد أن كانت تُصر على ابنها ليطلقك أصبح كل هذا الحب بينكما، في الشهور الأخيرة.

_ أنا متعبة، وأريد أن أرتاح، سأدخل لغرفة المرحومة لأنام بها، لا طاقة لي بالكلام، وافتقد شهيتي للطعام، بل وافتقد أيضًا الشعور بالجوع، فقط أريد أن أرتاح.

_ حسنا حبيبتي، كما تريدين، فلتنامي قليلا.

دخلت ثريا الغرفة، وأغلقت بابها بالمفتاح ومسحت ما تبقى من دموعا بعينيها، وتنهدت براحة لنجاحها في تمثيل دور المفجوعة

بامتياز على مدار اليوم، ونظرت يمينا ويسارا للغرفة فاتسعت ابتسامتها لتصل قريبا من أذنيها، كادت تخرج منها

ضحكة عالية لولا مخافتها أن تسمعها أختها زينب، فوضعت كفها سريعا على فمها وأخذت تلف وتدور حول نفسها كأنها باليرينا في عرض مسرحي ترقص بنشوة وهي تردد بفرحة غامرة ووجهها للسماء:

_ وأخيرًا.. أخيرًا تحررت من قبضتها التي كادت تخنق أنفاسي.

دارت ثريا حول نفسها وهي غير مصدقه أن حلمها قد تحقق وخلت لها الشقة وتخلصت من حماتها التي لطالما أزعجتها، وحملتها ما لا تطيق من قول وعمل.

ارتمت ثريا بجسدها المنهك على السرير، تحملق في السقف لتشاهد وتسترجع شريط ذكرياتها مع تلك الحماة المتسلطة، فمنذ يوم خطبتها وهي ترفض زواج ابنها منها، وعندما فشلت في إبعاد ابنها ومنعه من إتمام الزواج، أصبحت تتفنن في تعاستها.

وافقت عليها مجبرة، بعد أن قرر ابنها عدم الزواج بغيرها، ثم كان الزواج التي لم تهنأ به يوما في حضور تلك الحماة، حتى قررت أن تخير ابنها إما أنا وإما زوجتك وإلا.. فلتترك الشقة، فلم أعد أطيقها في شقتي.

استجاب الابن لطلب أمه، حتى يُرضي الطرفين، ترك الشقة واستأجر أخرى، رغم ضيق حالته المادية، ولتوفير متطلبات المعيشة التي زادت باستئجاره لتلك الشقة، كان عليه أن يبحث عن عمل إضافي، فكان يعمل ليل نهار.

كانت ثريا غارقة في ذكرياتها عندما أحست بالعطش الشديد، ابتلعت ريقًا شرخ حلقها من الجفاف، وكأن ما ذرفته من الدموع قد أنهى على كل قطرة ماء بجسدها، وبحركة لا شعورية تناولت زجاجة مياه معدنية صغيرة، مغلقة من فوق الكومود بجانب السرير، فتحتها وشربت حتى ارتوت.

وضعت الزجاجة التي ما تبقى بها إلا القليل جانبًا، لتكمل ذكرياتها..

كان الزوج يمر بضائقه مادية، عقب مرض ألم به فمنعه من العمل لثلاثة أشهر حتى تعافى، فلم يستطع دفع إيجار الشقة وتحمل المزيد من النفقات، فلم تجد ثريا حلا سوى أنها اقترحت على زوجها أن تذهب وتعتذر لوالدته وتستعطفها، لتوافق على عودتهما ليعيشا معها مرة أخرى، على أن تعتبرها كأم لها وتتحملها مهما فعلت.

شكرها الزوج لهذا الموقف، وأثنى على رجاحة عقلها، وبالفعل انتقلت ثريا مع زوجها للعيش مرة أخرى مع الأم، ومنذ ذلك اليوم وثريا كل ما تتمناه من الدنيا هو أن ترضى حماتها، وتتفانى في إسعادها، حتى أنهما أصبحتا أكثر من أم وابنتها، ونعمت الأسرة بما غمرها من حب الكنة للحماة، وازدادت سعادة الزوج بما حدث من وفاق بين أمه وزوجته، وعندما اطمأن لهذا السلام، وافق بعد إصرار من زوجته على قبول عقد عمل بالخارج لتحسين دخله، وهنا استطاعت ثريا تنفيذ خطتها للتخلص من حماتها، فوضعت لها قطرات من سم يؤدي لشلل دماغي في زجاجات المياه المعدنية التي لم تكن تشرب سواها، وحتى لا تكتشف أن الزجاجات

مفتوحة، استعانت ثريا بإبرة رفيعة من إبر الأنسولين و حقنت زجاجات المياه من تحت الغطاء وبالفعل شربت حماتها المياه المسمومة وتوفت بالحال ولم يتعرف أحد على السر، فلم يكن هناك شبهة جنائية، فالميتة تبدو طبيعية، لما كانت تعانيه المرحومة من أمراض.

هنا صرخت ثريا صرخة عالية مدوية شقت سكون الليل، جفلت زينب، التي كانت بالحجرة المجاورة، فهرعت لباب الحجرة التي وجدته مغلقًا بالمفتاح، فاستعانت بالجيران لفتح الباب، وكانت صرخات ثريا قد انقطعت، كسر الجيران باب الحجرة ليجدوا ثريا قد فارقت الحياة.

بداية وليست نهاية

***

(بإمكان الإنسان أن يبدأ من جديد)

رضوى عاشور

تُحكم الغطاء على طفلتها ذات الخمس سنوات، النائمة في فراشها كملاك صغير، سمعت باب الشقة يُفتح ليدخل زوجها واجماً جلس متثاقلاً على الكرسي ووضع رأسه بين كفيه، هرعت إليه في لهفة تسأله:

_ أي نازلة نزلت بك.

قال دون أن يرفع رأسه بصوت أقرب للهمس:

_لم أعد احتمل حياتي معكِ، زواجنا يزداد برودآ يوماً بعد يوم.

ثم رفع رأسه وأكمل متنهداً:

_ افتقد حلاوة الحب ولذته، كنت أبحث دوماً عن دفء المشاعر ووجدتها.

والآن لكي مطلق الحرية في الاختيار..

وقف متثاقلاً واستدار بوجهه ليهرب من تلاقي عينيه بعينيها وقال:

_ إما أن ترضين بالأخرى ضرة لكِ أو تتخذين للطلاق سبيلا.

كان كمن ألقى بقنبلةٍ وابتعد عنها بأقصى سرعته قبل أن تنفجر مشدوهة لا تكاد تصدق ما سمعت، هل هي نائمة وهذا كابوساً؟!!

أرادت أن تُغمس رأسها بماءٍ بارد علها تفيق، دخلت تحت الدُش بكامل ملابسها، فتحت المياه ولم تكن تعلم أيهما أغزر هطولاً على وجنتيها: مياه الدش أم دموع عينيها!!

كاد قلبها ينفطر ألماً وكمداً، فأخذت تنتحب بصوت مسموع، والمياه تواصل السقوط حتى أنهكها التعب فجلست في حوض الاستحمام تحت الدُش، يمر بخاطرها شريط ذكريات لسنواتٍ خلت، مزيج من المشاكل والمباهج، من الأفراح والأتراح، ظلت هكذا طويلاً حتى غابت عن الوعي، ثم أفاقت منهكة، أغلقت

الدُش وأبدلت ملابسها المبتلة بأخرى جافة، تتلوى كطيرٍ ذبح لتوه، لا تدري كيف يخيرها بين أمرين كلاهما علقم.

بطيئاً اتجهت إلى غرفة طفلتها؛ تماماً كسلحفاة بليدة تعاني من تمزق الأربطة، ثم شاركتها الفراش محملقة في وجه ابنتها الساطع.. لوحة ربانية تتلألأ وسط ظلام تلك الليلة البئيسة كأنها نجمة لامعة تبزغ في بحر من الظلمات، رويداً أراحت رأسها إلى الخلف قليلاً، ولا إرادياً سمحت لعقلها باجترار الكثير والكثير من الذكريات.

تذكرت كيف كان زواجهما تقليدياً، وكيف كان زوجها دوماً كريماً في إيلامه لها وجرحها بلاذع الكلمات، كيف كان شحيحاً بخيلاً في مشاعره واهتمامه مهما تكبدت هي العناء في سبيل راحته وإسعاده، ما كانت تأمل بزواجها مستحيلا! فكل ما كانت تنشده من جمال الدنيا وزخرفها هو رفيق تأنس بقربه وجواره وتجد لذة الحياة في التحدث معه والسكون إليه.

لم تكن تعلم لماذا يعاملها بكل هذا الجفاء؟!..ولا يجد راحته وسعادته إلا في صمته ووحدته!!.. إلى أن رزقهما الله بتلك الطفلة

الجميلة فاستبشرت بها خيرا، علّ الله يحدث بعد ذلك أمرا، ويتبدّل زوجها من حال إلى حال؛ لكن أسفاً ما كان منه سوى بعض الابتسامات الفاترة لتلك الطفلة البريئة ونادراً ما كان يداعبها ويأتي لها بالحلوى كحال غيره من الآباء، كانت دوماً تختلق له الأعذار لضغوط الحياة والعمل وتتحمله صابرة محتسبة.

تتذكر أيام مرضه الشديد حين ازدادت عليه الحُمى؛ فما كان منها إلا أن سهرت بجواره تضع له الكمادات كما نصحها الطبيب، كان وقع تلك الليلة عليها كالصاعقة، إذ كان يهذي باسم حبيبته التي فرّق بينهما القدر؛ فكان تارة يعاتبها ويعنفها وتارة أخرى يستعطفها أن تعود إليه.. يُذكّرها بوعودها بألا تكون لأحد غيره، ثم يشكو لها حاله وكيف أن زواجه كان فقط محاولة بائسة لنسيانها ولم يقدر، وأخيراً يقسم لها بأنه ما زال يبحث عنها في وجه زوجته فلا يراها.

هنا علمت ما كان يخفيه من أمره ولماذا كان يسعد بحياة غير التي كانت تسعد بها، ربما كان لا يبغضها، لكنه أيضا لم يكن يحب أن يراها ويأنس بها.

وعقب تماثله للشفاء، بعد بضعة أيام صارحته بما سمعته يهذي به؛ فما كان منه إلا أن ثار وأنكر متعلّلاً بمرضه، وظن أنه قادر على إجبار ملامح وجهه ونظرات عينيه على طاعته وإخفاء مالا يريد قوله، تيقنت من كذبه بَيد أنها تظاهرت بالغباء كي لا تخسره.

كانت تُمني نفسها أن يهبط يوما من سماء أوهامه إلى أرضها؛ التي تسكنها فيطيب لهما العيش معاً، اجتاحتها عاطفة غريبة متنوعة الأشكال، كانت مزيجاً من حب ابنتها وخوفها عليها، والسرور والأمل أن تنعم بحريتها.. مزيجٌ من الأمل الواسع، والرجاء الخائب؛ تبتسم مرة فتلمع ثنايا محيّاها ثم تبكي أخرى حتى تبلل وسادتها.

قضت ما تبقى من ليلتها في صلاة ودعاء لخالقها راجية منه أن يعينها على أمرها، وينير لها ظلمة هذه الحياة الجديدة التي ما كانت يوماً تتمناها.. ظلت تناجي ربها كأنها تردّد ترنيمة خافتة، تضرعت إليه أن يلهمها الصواب، وأن يرضيها به مهما كان، ويعينها على اختيارها.. مكثت تدعوه إلى أن أعياها ما كان من ليلتها؛ فراحت في سباتٍ عميق في مصلاها.

أفاقت على لمساتٍ ناعمةٍ حانيةٍ من يد ملاكها الصغير، على وجهها المنهك الذي بالكاد جفت عبراته، كان لصوت ابنتها الضاحك عذوبة وحلاوة كصوت عصفور كناري يغرد فيملأ النفوس بهجة، جاهدت لتفتح جفنيها الناعسين، قامت بتململٍ متثاقلة، جاهدت

لتبتسم واحتضنت طفلتها وكأنها تستمد من جسدها الصغير الضئيل القوة التي تحتاجها لتشحذ همتها فتستطيع مجابهة القادم.

كان الطقس شتوياً بارد، والسماء ملبدة بالغيوم القاتمة، التي تكاد تخنق الشمس فلا يصل من دفء أشعتها للأرض شيئاً.

في غضون الساعة كانت قد انتهت من إعداد ابنتها لتذهب لمدرستها، ذهبت معها لتوصلها، وفي طريق عودتها اتجهت لمنزل والديها، لتخبرهما ما كان من زوجها، وتطلب منهما العون في النصيحة والمشورة، فما كان من والداها بعد الكثير من السباب والشتائم لذلك الزوج (قليل الأصل) واستنكار ما هو مقدم عليه،

إلا أنهما أسهبا في تحذيرها من مجرد التفكير في الطلاق، متعللين بنظرة المجتمع الدونية للمطلقة، واعتبارها امرأة فاشلة ويلصقون بها كل ما بدا لهم من النواقص والعيوب، وسوء الخلق، بل وقد يجتنبوها حتى لا تفسد عليهم حياتهم .

كانا يتناوبان في محاولة إقناعها بعدم اللجوء للطلاق، وكأن كل ما تتكبده من ذل وهوان وإهمال وتهميش من زوجها لا يساوي كلمة طلاق التي لا تعني لهما سوى العار والفضيحة.

أصرا والداها على أن تقبل بأقل الأمرين ضررا، وترضى بقضاء الله وقدره، وما قسمه لها، وأن تتقبل أن تشاركها أخرى في زوجها، و(ظل راجل ولا ظل حيطة)،

كانت تستمع لهما ولا تنبس ببنت شفة وكأن ما بها قد أفقدها النطق، انقضت الساعات سريعاً وحان موعد عودة ابنتها من المدرسة، ذهبت لتصحبها للمنزل، تمشي حزينة مهمومة، تقتلع قدميها في مسيرها اقتلاعاً، ورأسها يكاد ينفجر كحلة ضغط، من سيل الأفكار المتضاربة، كانت بأمس الحاجة لأن تصرخ بأقصى

طاقة عندها للصراخ، لكنها حاولت كتم صرختها بداخلها، فلم تقو ضلوعها على احتوائها، فأخرجت تلك الصرخة من تحت جفونها دموعاً غزيرة، ومع كل دمعة تسقط، كانت تزداد إصراراً لوضع حدٍ لتحملها الأحمق الذي كاد يحرق روحها.

أما آن لها أن تتخلص من البكم الاختياري وتفرج عن لسانها الذي لطالما أغلقته بالضبة والمفتاح؟! أما آن لها أن تقول كلمتها التي تختارها بمحض إرادتها، ودون أدنى ضغط أو إجبار من أحد؟!

كيف لها أن تتحمل المزيد من الألم وتدعس نفسها من أجل حديث الناس؟ من أجل أن تخرسهم!!

كيف تتحمل أن تكبر ابنتها فترى أمها ذليلة مُهانة ليس لها من أمرها شيء فيكون لها نفس المصير يوماً ما.

أما آن لقلبها أن يستريح وتنتظم دقاته، فتعود معافاة من جديد؟!

بعد تفكير متواصل، والدعاء والتضرع لخالقها أن ييسر لها الخير من أمرها، فكان الطلاق قرارها الأخير لتكون البداية.

مسائيات

***

بعد يوم طويل شاق مليء بالمشاحنات ومشاكل العمل، يعود لبيته مكدودا، على طاوله الطعام يحمل نفسه حَملاً على تناوله دون شهية، ترمقه زوجته وهي تحدث نفسها:

_ طبعا شبعان، تلاقيه أكل معاها.

صامتا ينهي طعامه يتمدد على الأريكة يغوص في عالمه، يحاول إفراغ شحنة هذا اليوم الطويل، تشرد عيناه دون تركيز، ربما أغمضهما للحظات، باحثا عن حل لمشكلة بعمله.

تقدم له كوباً من الشاي وهي تتابعه بنظرات اتقدت شكاً، أنه يهيم صبابة في عشق غيرها، ويسبل عينيه متذكرا ما كان بينهما.

سأم من ثرثرته العقلية، أراد أن يريح ذهنه قليلا، التقط هاتفه ليتصفح الشاشة الزرقاء ابتسم لمنشور هزلي فزاد لهيب قلبها لتنفجر به صارخة:

_ باعتالك إيه بتضحك عليه؟

_ هي مين دي؟

_ حبيبة القلب اللي كنت معها طول اليوم.

محاولاً كظم غيظه وإنهاء جدال لا فائدة منه، قال بهدوء:

_ حبيبتي.. إنتي اتجننتي رسمي، وأنا فيا اللي مكفيني، أنا نازل.

_ بتتلكك عشان تنزل تاني لحقت توحشك؟!

يزبد ويرغي مكورا قبضته يريد أن يسدد لها لكمة يبث فيها كل همومه، يتمالك نفسه في اللحظة الأخيرة ويسدد لكمته بكل قوته في الوسادة، يتركها ليفتح الباب خارجا وبقوة يغلقه خلفه.

تنهمر دموعها وهي تندب حظها وتؤكد لنفسها صدق حدسها:

_لازم هي اللي شفتها معاه في الحلم، أنا أحلامي ما تنزلش الأرض أبدا.

السـر..

***

تتوقف في منتصف الغابة وهي تلهث بخوف شديد، ثم تضع ذاك الحمل الثقيل عن رأسها، تجلس بجانبه أرضا لتستريح قليلا، تتلفت يمينا ويسارا لتتأكد من أن أحدا لا يتبعها، ترفع رأسها للسماء لتستقر عيناها على القمر المكتمل وما زالت أنفاسها السريعة تعلو وتهبط، أحسست بصوت وخطوات أقدام تفتت أوراق الأشجار الجافة من تحتها، شعرت بالذعر، حاولت النهوض مجددا فتعثرت، لم تتمالك نفسها من الخوف حتى رأت قطا كبيرا يخرج من بين الصخور فطمأنت نفسها محاولة أن تتشجع لتكمل تلك المهمة الصعبة المليئة بالمخاطر، والتي تكررها كل أسبوع أو اثنين وربما كل شهر على الأكثر، تلك المهمة التي تداوم عليها من بعد وفاة والدتها منذ شهور، وتدرك جيدا أن شكوك زوجها في زيادة، يسألها أين كنت؟ فتجيب مرة:

_ كنت أزور قبر أمي.

ومرة أخرى:

- في بيت أمي آنس لرائحتها فتزيل وحشتي لها.

وذات يوم وجد صرة كبيرة مليئة بالطعام فارتبكت وقالت إنها لجارتها، وقد تضطر للكذب فتقول: لقد سرقت في السوق أو فقدت بعض المال، لكن ليس أمامها طريق آخر.

تحمد الله كل يوم أن عمل زوجها خارج القرية، مما يضطره للمبيت يوم أو عدة أيام كل شهر مما يمكنها من الذهاب لغايتها، التي كانت في غنى عنها في وجود والدتها، عند تذكر أمها الحبيبة راحت تدعو لها بالرحمة وهي ترفع صرتها لتستأنف طريقها، حتى وصلت لكهف بين الصخور في مكان مهجور له باب ضيق يسده جذع شجرة ومن خلفه حجر كبير، وما أن وصلت تلك الزنجية الكهف، حتى ارتسمت على محياها ابتسامة كشفت عن أسنانها اللؤلؤية، وهي تزيح جزع الشجرة وتنادي بصوت هامس ثم تدخل وتختفي داخل الكهف.

لم تكن تعلم أن هناك من يتبعها من بعيد ليعرف سرها..

نعم أنه هو.. زوجها الذي شحذ سكين وأخفاه بين ملابسه، وذهب خلف امرأته بعد أن أوهمها بسفره خارج القرية، ثم انتظر بعيدا عن بيته وأخذ يراقبها حتى غابت الشمس وحل الظلام

فخرجت تتسلل، وهو من ورائها وما إن تأكد من دخولها الكهف وأن هناك من ساعدها لإزاحة الحجر من الداخل حتى داهمها رافعا سكينه، وما أن وقعت عيناه على من داخل الكهف حتى سقط السكين من يده، وزوجته تصرخ وتبكي:

_ابنتي ابنتي .. أقسم لك أنها ابنتنا، أتوسل إليك بحق السماء ألا تصيبها بأذى.

كانت صدمة شديدة على الأب أن له ابنه سجينة هذا الكهف لعشر سنوات كانت جدتها ترعاها سرا منذ أن ادعت وفاتها عقب الولادة مباشرة، لم يكن سهلا على الأم والجدة أن تتخذا مثل هذا القرار لكنه الخوف مما ينتظرها.

كانت الطفلة تنفطر من نشيج خنقه الخوف من هذا الغريب الزنجي الذي تراه لأول مرة، وهي تحاول أن تختفي في أحضان أمها،

التي راحت تركض بها لركن بعيد من الكهف وهي تعتصر جسدها الصغير حتى كادت أن تكسر عظامها بذراعيها.

رق قلب والدها، وأشار بيده وهو يرجع للخلف ألا تخافا ولا تحزنا، جلس بعيدا وهو يتأمل بياض ابنته الشاهق وشعرها الثلجي، أما هي فكانت ترمقه بعينيها الرماديتين وشفتيها الحمراوين ترتجفان، بعد قليل تكلم وقال بصوت تخنقه العبرات:

_ كيف استطعتِ الكذب علي كل تلك السنوات؟

قالت بتحدٍ:

_ لو استطعت لأخفيتها عن العالم كله لأخر يوم بحياتي.

_ في هذا الكهف؟ بعيدا عن أسرتها؟ وإخوتها؟ وتحشرج صوته وأكمل: وأبيها؟

قالت:

_ بعيدا عن كل البشر، ما كان عندي خيارا آخر لأحميها؟ لن اتحمل أن أراها تكبر أمام عيني معاقة مشوهة.

_ وأين أنا؟ ألم استطع حمايتها؟؟

_ تعلم جيداً أنه حتى أنت لن تستطع حمايتها من اللصوص والقتلة، حتى الأطباء والسحرة الجميع يتمنى أن يظفر بمثل ابنتنا ليبتر لها ساق أو ذراع ليبيعها بأثمان باهظة، أو لتجلب له الحظ، والثروة، وحتى من مات منهم لم تسلم قبورهم من النبش.

طأطأ الزوج رأسه واحتضن ركبتيه لقله حيلته، فهذه الحقائق لا تغيب عنهم، فلطالما سمع وشاهد الكثير من الجرائم ضد هؤلاء الأطفال الذين يسمون (الألبينو) في تنزانيا، بعد لحظات من التفكير قطع الصمت وقال:

_ وما ذنبها لتعيش وحدها سجينة هذا الكهف المظلم.

قالت وكأنها تشد من أزرها:

_ ابنتي قوية، اعتادت حياتها التي كتبها الله لها، وتستطيع تدبير أمرها.

_ يكفيها هذا ولنأخذها لبيتنا لتعيش حياة طبيعية وليساعدنا الله على حمايتها، و...

لم يكمل كلامه حتى هجم عليهم بعض الصيادين الذين كانوا في الغابة يتربصون بصيد من الحيوانات فأبدلوه بصيد من البشر.

رابــعة..

***

أنا الصامتة أو الرابعة كما ينادونني بدأت حكايتي عندما استيقظت ثلاثة فتيات في عمر الزهور فزعات على صرخات أمهن تمزق سكون الليل، غادرن غرفتهن خائفات ينادين بهلع:

_أمي.. أمي..

رأين الكثيرات من الجيران والمعارف، يهرولن في أنحاء البيت، تلقتهن إحدى الجارات بحنان ودخلت معهن لغرفتهن وأغلقت بابها عله يُضعف من حدة الصوت، ظلت تحكي لهن الكثير من الحكايات لتهدئ من روعهن، سألتها الكبرى:

_لماذا تصرخ أمي هكذا؟ هل هي مريضة؟

ابتسمت الجارة بهدوء وقالت:

_لا يا بنيتي، أمك ليست مريضة، لكنها على وشك الولادة، فلندعو لها الله جميعاً، أن يكون المولود هذه المرة ذكراً، ليكون لكُنَّ أخاً وسنداً.

استمر ألم المخاض والصراخ المتقطع لساعات، حتى حل الصمت فجأة ثم علا بعدها صوت بكاء المولود الذي هو أنا، استبشرت جدتي وهرعت لتطمئن على أمي ومولودها، فخرجت من عندها بحال غير الحال.. خرجت وقد اكتست ملامحها بالحزن، وامتلأت عيناها بدموع فشلت في إخفائها، تسللت النساء الواحدة تلو الأخرى، مطأطأت الرؤوس دون أن تنبس إحداهن ببنت شفة، فقط اكتفت بعضهن بالتربيت على كتف جدتي أو صدرها، وقلة قليلة من تلفظن بعبارات لا تدري أهي مواساة؟ أم تحمل في باطنها الشماتة! مثل: سلامتها لبناتها _ سلامتها بالدنيا _ الله يعطيها العافية وتأتي بالولد المرة القادمة _ الله يعينها على تربية بناتها.

عم الحزن أرجاء البيت فالمولودة أنثى، للمرة الرابعة أنثى، وهذا كفيل بجلب الكثير من الويلات التي سرعان ما توالت على الأم والجدة، أسبوع كامل لم تكن الجدة تطلق على المولودة سوى (

الرابعة) فتقول : أرضعي الرابعة _ الرابعة تبكي _سأبدل للرابعة ملابسها _سآخذ الرابعة لمكتب الصحة لتطعيمها..

وهكذا تم تسجيلي بشهادة الميلاد باسم (رابعة) لكن عند مناداتي يضاف لاسمي(ال) فيكون (الرابعة) وكأن اسمي أصبح وصمة عار

ألصقت بي يوم ولادتي، فأنا الرابعة التي لم يرغب أحد بوجودها، الرابعة التي قسمت ظهر أمها، وزادت من حمل أبيها.

وبات تاريخ أسرتنا الصغيرة لا يتحدد بنسبته للتقويم الهجري أو الميلادي! بل يتحدد بنسبته لميلاد الرابعة، فتحكي جدتي قائلة: غادرنا القرية بعد ميلاد الرابعة بكذا _ مرضت أمكم بعد الرابعة بكذا _ تزوج أبيكم بأخرى بعد ميلاد الرابعة بكذا _كنا قبل الرابعة، أصبحنا بعد الرابعة...!!

عندما وضعتني أمي كان أبي بعمله الذي يقضي به خمسة أيام متواصلة ثم يأتي بعطلة نهاية الأسبوع، ويجلب معه حلوى السمسمية والعسلية، ليعطيها لبناته فيفرحن ويهرعن إليه ليأخذهن بين أحضانه، ويمطرنه بوابل من القبلات والضحكات

التي تملأ البيت سعادة -هكذا كانت تحكي جدتي- عندما علم أبي بالرابعة أتى عابس الوجه، كمن فقد عزيزًا، ولأول مرة لم يحمل بجيبه الحلوى، ولم يفتح ذراعيه ليتلقى صغيراته، أمرتهن جدتي بالدخول لغرفتهن حتى يستريح أبي من عناء السفر،

فاستجبن لها، لحظات وسمعن صوته عالياً يهدد ويتوعد ويلعن سوء اختياره لزوجة لن تأتي بالولد كأمها، وقذف في وجهها بقراره الزواج بأخرى، لتأتي له بالولد الذي عجزت أمي عن ولادته، وبالفعل تزوج أبي بأخرى، لم تكن بجمال أمي لكنها أصغر منها، أتى بها لتشاركنا منزلنا، لم تجف عبرات أمي، واكتست تقاسيم وجهها بالألم رغم مواساة جدتي لها، وتحذيرها أن ترضع الرابعة بحليب صدرها وقد خالطه الحزن، لم تستطع أمي كبح جماح حزنها وشعورها بالقهر ومحاسبتها على شيء لا يد لها فيها.

تضاربت مشاعر أمي تجاهي.. أنا ابنتها الرابعة.. هل تحبها لأنها هبة فلذة كبدها؟ أم تكرهها لأن وجودها كان سبباً في ظلمها وتحملها مرارة عيشها مع ضرة، وكأنني في مهدي شعرت بحزن أمي، فامتنعت

عن الرضاعة، فتدهورت صحتي وخافت أمي أن تفقدني، فانشغلت بتمريضي ورعايتي ونسيت ما كان من أبي،

بعد عام من زواج أبي رزقه الله بالولد، ومنذ ولادته وأبي تغير تماماً، أصبح إنساناً عنيفًا قاسيًا معنا جميعا عدا زوجته الجديدة، المدللة، فهي أم الولد! فكان يسمع لها، ويصدقها دون أن يتبين، يأمر الجميع

بخدمتها والعمل على راحتها، لتتفرغ للعناية بالصغير، وكانت تستمتع بمناداة أمي صباحاً ومساءً ب(أم البنات) ودائماً تأمر وتنهي، وتشي بنا لأبي فيعاقبنا أشد العقاب، قالت له ذات يوم وكنت في الخامسة من عمري، أنني تسببت بكسر بعض الأطباق عمداً، فأيقظني من نومي وضربني بشدة، رغم توسلات أمي له أن يرحم ضعفي، وأن الأطباق انزلقت رغمًا عني أثناء تنظيفها، وأن زوجته تجبرني على القيام بأعمال أكبر من أن تتحملها طفلة بمثل عمري، لم يستمع أبي لتوسلاتها الباكية، وتلقيت الضربات بصمت، لم يحتمل جسدي الصغير كل هذا الألم ففاضت عيناي بدموع تتساقط منهمرة، دون توقف، كانت تلك المرة الأولى التي

يضربني فيها أبي، لكنها لم تكن الأخيرة، فبعدها ضربني كثيرًا، وصرخ بوجهي أكثر، وفي كل مرة يعجز لساني أكثر وأكثر، وتنساب دموعي أغزر، حتى كادت أن تجف، ولم يعد لي سوى الصمت، مع الأيام ازداد عنف أبي وقسوته، حتى قرر ذات يوم أن يحرم أختي الكبيرة من الذهاب إلى المدرسة، ويزوجها لابن عمي رغم أنها لم تتجاوز السادسة عشر من عمرها، ومع كل محاولات أمي وجدتي وتشاجرهما معه إلا أنهما لم تستطيعا تنحيته عن قراره، وتمت الزيجة وانتقلت أختي للعيش ببيت عمي مع زوجها، علمنا بعد شهور قليلة أنها حملت ولم يحتمل جسدها الهزيل الحمل، شعرت بألم شديد لم تحتمله وهي بشهرها السابع، فتم نقلها للمشفى حيث قرر الطبيب إجراء قيصرية لها في الحال، لخطورة وضعها، وأثناء العملية حدث لها نزيف حاد بعد وضعها لمولودها، لم يستطع الطبيب السيطرة عليه ففاضت روحها الطاهرة إلى بارئها، ولحق بها وليدها بعد أيام قليلة، لعدم اكتمال نموه، كانت صدمة أمي كبيرة، ولم تحتمل البقاء بمنزل يحمل كل ركن فيه ذكرى فقيدتها، فقررت أن تترك البيت، وتنجو بنفسها وبناتها

الثلاثة من جبروت أبيهم، وتسلط زوجته الثانية، وتعود لشقة جدي بالقاهرة، وطلبت الطلاق من أبي.. فاستجاب لطلبها، لكن دون طلاق، فعار على الرجل الصعيدي أن يطلق زوجته، ووافقت أمي، وانتقلنا للعيش بالقاهرة مع جدتي، وكان أبي يأتي كل فترة لقضاء بضعة أيام معنا، يلقي فيها التعليمات، والتحذيرات، ولا يمل من انتقاد تصرفاتنا،

واتهام أمي بتدليلنا، وإفساد تربيتنا، ولا أدري حتى هذه اللحظة أي تدليل كان يقصد؟! وقد كان يدفع لأمي القليل من المال رغم يسر حاله، بحجة (المال الكثير ورغد العيش يفسد البنات) وليس بيد أمي إلا أن تتدبر أمرها بهذا القليل، تساعدها جدتي بما يتبقى لها من معاش بعد شراء ما يلزمها من أدوية، ومع تزايد نفقاتنا كان لابد من الاستغناء عن كل ما يمكن الاستغناء عنه والعيش بدونه، وكانت أمي تتحمل هي الأخرى عنف أبي وتطاوله عليها باللسان وأحياناً بالأيدي، فلا حيلة لها سوى الصبر والاحتساب.

بعد سنوات قليلة أصبح أبي يعاني صحياً، فأدعو الله في صمت أن يشفيه، حتى لا يموت مثل أختي وابنها، أردد بيني وبين نفسي:

_ يا رب.. يا رب بابا يعيش حتى لو ضربني كل يوم.

وعندما كان يتعافى ويقوى من جديد يعود لصفعي ونهري لأتفه الأسباب، فأعود بدوري لصمتي وبكائي الذي أصبحت أجيد إخفاؤه عن الجميع.

علمنا أن المرض اشتد عليه، ولازم الفراش، فسافرنا جميعاً للصعيد، لنكون بجواره، لكن قضاء الله كان أسرع، فمات دون أن نراه.. أو نودعه، بكيت كثيرا من أجله، بعد شهور من وفاته، زارني في حلمي مبتسما احتضنني وقبلني، وقبلته كثيرا، استيقظت من نومي يعتريني شعور بالراحة والسكينة، ولم أعد أبكي ثانيةً بعدها.

بعد وفاة أبي تمسكت بصمتي أكثر، لا أشارك أمي وجدتي سوى القليل من الحديث، وعندما كبرت أختي وجاءها من يطلبها للزواج وطلبت مني الرأي، لم استطع البوح لها بخوفي عليها فإما أن تعيش كجدتي، أو أمي، ولربما لاقت نفس مصير أختي فتموت هي الأخرى، كل النساء في نظري مقهورات كأمي، وكل الرجال لهم نفس قسوة

أبي، فلما الزواج؟ لما لا تعيش الفتيات بحرية وسط عوائلهم دون الحاجة لرجل يفرض سيطرته عليها.

تزوجت أختي، وتبعتها الأخرى، وأنا أتفرج على الأحداث من بعيد، وكأنها لا تهمني في شيء، رغم محاولات أمي وأخواتي لإشراكي في الرأي واتخاذ القرار، لكني لا أعرف كيف يكون الرأي، وكيف اتحمل مسؤولية اتخاذ قرار؟!

سافرت أختي مع زوجها لبلد عربي، وظلت أختي الثانية تزورنا باستمرار مع زوجها، فكنت ألزم الصمت رغم آلاف الكلمات التي

تدور بذهني، وعندما يسألني أحد عن شيء في محاولة لدفعي للحديث تختنق الكلمات بحلقي وأكاد أبكي، فألوذ بالفرار منهم إلى غرفتي، وأنا ألعن ضعفي، وأكره نفسي.. أحاول التغيير لكن بلا فائدة.

عندما التحقت بالجامعة كنت أخشى الغرباء وأخشى الحديث مع أحد، خاصة زملائي من الجنس الآخر، نظرا لظروف الدراسة بالكلية كان لا بد لي أن أتغير تدريجيا وأخرج عن سنتي قليلا،

حاولت التكلم مع زميلاتي وأشاركهن الرأي واتعلم اتخاذ القرارات المتعلقة بالدراسة لكن الصمت كان حارسي.

ذات يوم قررت دكتورة مادة علم النفس بكليتنا تقسيم دفعتنا لمجموعات، لعمل بحث ميداني عن إحدى الظواهر المجتمعية الدخيلة، التي انتشرت في مجتمعنا مؤخراً، وكانت المفاجأة أن مجموعتي المكونة من خمس أفراد لا يوجد بها سوى فتاة غيري والباقي من الذكور. ومع أول اجتماع لمجموعتنا من أجل وضع أفكار للبحث، أحسست بجبيني يتفصد بعرق بارد، وتلاحقت أنفاسي، ولم تعد رئتاي قادرة على سحب الأكسجين من الهواء، بشكل طبيعي، وانتابتني رعشة شديدة، فسارعت صديقتي بمساعدتي لإخراجي من المدرج -مكان الاجتماع- إلى مكان مفتوح كي استطيع التنفس بصورة أفضل، والحقيقة أنني بمجرد خروجي وابتعادي عن زملائي، لم أعد أعاني أي شيء! لم تكن هذه المرة الأولى، فقد اعتدت على هذه الأعراض منذ وفاة والدي، بحثت كثيراً عبر الإنترنت عن أسباب هذه الأعراض، وكيفية علاجها، فعلمت أنه مرض نفسي يسمى (رهاب الرجال) أو (أندروفوبيا) وهو

خوف مرضي تجاه الرجال، لم أعرف في حياتي من الرجال سوى أبي.. أبي فقط حتى عمي كنت أخاف منه، واختبأ عندما يأتي لزيارتنا أو اتظاهر بالنوم حتى يذهب، مات أبي لكن ما زرعه من خوف في نفسي تجاه كل الرجال ما زال بداخلي لم ولن يموت.

لم استطع خلال سنواتي بالجامعة تجاوز محنتي هذه، بل كنت أتعلل بالمرض دائماً للهروب من أي مواجهة مباشرة بيني وبين الجنس الأخر، وبعد التخرج كان حلمي الوحيد هو العمل، لكن كيف لي العمل ومعظم أصحاب الأعمال أو من يقومون بالمقابل الشخصية رجال!

كنت أدعو الله كثيرا أن يحل عقدة لساني، لكن دون فائدة، حتى رضيت بالعمل كبائعة بمحل للملابس النسائية تديره سيدة طيبة القلب، تحبني كأمي، عرفت مشكلتي وتحاول مساعدتي، تقول لي دائماً:

_أنتِ فتاة جميلة، ويوماً ما ستفتحين قلبك للحياة، ستتزوجين من يدق له قلبك، من يناديك.. أميرتي، أنت تستحقين الحب.

كنت ابتسم لكلماتها اللطيفة، وأردد في نفسي: هيهات، أنى يكون للرابعة حبيب.

أنظر للمرآة فلا أجد سوى الرابعة، التي حزنت أسرتها كلها بمجيئها للدنيا، فقط لأنها أنثى!

أضواء..

***

أنهت تجهيزات عيد ميلادها، أشعلت الشموع، التفت من حولها الكثير من الوجوه الباسمة، الجميع يطلب ودها، فهي نجمة السينما والمسرح اللامعة التي تملأ العالم حولها إبداعا وحضورا وتحتل صورها الصحف واللوحات الإعلانية.

يزدحم المكان بالديكورات، تتوالى الإضاءة بعشرات الألوان، يعلو حولها ضجيج لم يستطع أن يحميها من صرخات صمتها الداخلي المرعب، وحدها تسمع ضحكتها صرخة ألم.

تصدح الموسيقى بنغمات صاخبة، ترقص.. تتمايل.. تدور حول نفسها.. تطوف.. تحلق بجسد تشعر أنه ليس جسدها ولا سيطرة لها عليه، كأنه كيان منفصل عنها تماماً.

تغمض عينيها، تغوص في عالمها، تحاول إيجاد إجابة لسؤال يتردد:

_ثم ماذا؟! ماذا بعد؟! شهرة.. تألق!!

باطن مكتوم وخواء داخلي، تشعر أنها ضحية لتلك الحياة بكل لوعتها وجمالها.

تجتر وحدتها الداخلية وعذاباتها، تتبعثر خطاها، تنظر حولها لا ترى وسط الأضواء إلا الظلمة! لا تشعر وسط الضجيج الذي يكاد يصم الأذن إلا بالغربة!

تتسلل لغرفتها، تلتقط آخر صورة جمعتها بوحيدها، حلمها الذي تحول كابوساً يطاردها ورغبة قاتلة في اللحاق به، تحتضنها وتقبلها، تسقط منها دمعة ساخنة، تنهيدة حارة تشق صدرها، تتناول حبات أعدتها مسبقا لهذا اليوم، تعيد رسم ابتسامتها، وكعادتها تبدع في أداءها التعبيري، تخرج لتكمل رقصتها، كطير مذبوح يشوى بأجنحته الملتهبة.

شيئا فشيئا تخبو ضحكتها، عرق غزير ينتابها، يجف حلقها، ينقبض لحمها، تتقلص أمعاءها، تغييم عيناها، تتهاوى، صرخات

تتعالى، أقدام تركض، أصوات تأتي من كل مكان، صراع مع الزمن الزئبقي، ترتجف، تغمغم، تتسرب منها كلمات مبهمة، ثم لا شيء سوى الصمت.

السبوع..

***

هذا المساء نحن على موعد لحضور حفل سبوع، كم أنا مشتاق لرؤية أختي الحبيبة بعد أن أصبحت أماً، لابد أن وليدها يشبهها فهو قطعة منها انفصلت لتكون كياناً مستقلا.

توجهت للحمام وفي طريقي أتاني صوت زوجتي عاليا محذرا يحمل التعليمات..

_اوعى تنسى وتحلق دقنك! بعدين تكبس أختك، وممنوع تصور البيبي أو تبوسه لسه الملائكة محوطاه.

لم أكن يوماً اعتقد بتلك الخرافات، ولكني كنت مجهدا للغاية، ولا طاقة لي بنقاش مؤكد سأخرج منه خاسراً، ليس لضعف حجتي ولكن لعلمي بعقلية زوجتي، فقلت وقد آثرت السلام النفسي:

_ حاااااضر.

استقبلنا زوج أختي بحفاوة أمام بيته الذي أضيئت أنواره، وفتحت أبوابها أمام الكثير من المدعوين الذين لبوا الدعوة، لتناول الطعام العقيقة والأرز والفتة.

بينما تصارع وتسارع أطفال العائلة لتوزيع أكياس الفشار والحلوى على بيوت الأهل والجيران.

دخلت غرفة أختي التي تهلل وجهها لرؤيتنا، همت للقيام من فراشها للترحيب بنا وبين يدها وليدها، التقطته منها بلهفة لأتطلع لوجهه الملائكي، وأذنت له في أذنه، بينما انطلقت زوجتي بعد السلام والاطمئنان على الأم والطفل للمساعدة في إكرام وتلبية حاجات الضيوف، جاءت الجدة تصطحب معها القابلة التي أصرت أن تقوم هي بجلالة قدرها بطقوس السبوع.

دخلت القابلة المهيبة الحجم والطلة، وألقت بجسدها البدين على السرير، وضعت أمامها طست صغير به ماء نظيف لتقوم بطقوس أول استحمام للوليد، وهي تتمتم بالأدعية تارة، وتدندن

بأغاني السبوع المبهجة تارة أخرى، والجدة تساعدها وتتطلع بشغف لما تقوم به وكأنها أمام ملك مهيب يأمر فيطاع!

وما أن فرغت وألبسته، حتى تناولت المكحلة من جوارها وغرست فيها ريشة أخرجتها للتو من بصلة بجوارها، وراحت تكحل الطفل الذي تعالى صوت صراخه وسط ضحكاتها وابتساماتها التي تملأ وجهها، ومن نفس المكحلة أخذت القليل لتضعه على صرة الطفل قبل تضع له لفائفه، أغلقت ما بين حاجبي وعقدت الدهشة لساني للحظات ثم قلت لها بقلق:

_الكحل ده ممكن يأذي عينه ويلوث الصرة، المفروض للصرة كُحُل أبيض سبيرتو يعني. قالت وقد امتعض وجهها:

_طول عمرنا بنعمل كده، وهي دي عوايدنا.

هممت بالرد عليها لكن نظرات أختي منعتني أن أزيد، فأثرت الصمت.

درتُ بعيني في أنحاء الغرفة المزدحمة، لأجد إناء به السبع حبوب منقوعة، وإبريق فخاري ملون مملوء بالماء النظيف المعد للشرب

حتى تدخل محبة الوليد قلوب كل من شرب من منه، صحن آخر أيضاً من الفخار، يتلألأ فيه ذهب وحلي الأم، انتهت الجدة من تجهيز حفيدها، ثم أتت بغربال مزين وأرقدته فيه، بعد أن نثرت الحبوب والفشار والحلوى فيه، ثم اخذت تخيط بعض الأحجبة والصرر التي ملأتها بالحبوب والملح وبعض البخور، وربطتها بملابسه، ولم تنس أن تضع حوله الكثير من النقود المعدنية التي جمعتها من كل من رآه، داعية أن يجعل الله رزقه كثيرا.

أنهت عملها بإتقان ونظرت الجدة وهي تدعو له ولها، فدست الجدة يدها في صدرها لتخرج لها مبلغا من المال كأجر لما قامت به.

أشاهد في صمت، فقط أتبادل النظرات والابتسامات مع أختي، إلا أن جاءت زوجتي تحمل لي كوبا من المغات المعد بالسمن البلدي، وأخذت تثرثر مع الجدة حول ظروف وملابسات الولادة، أخبرتها أنها كانت ولادة متعثرة لولا تدخلها في الوقت المناسب، وأنها هي من أنقذت الموقف حين أجبرت ابنها على خلع ملابسه وارتدائها مرة أخرى بالمقلوب! فجاء لطف الله وتيسيره، وخرجت الأم

والطفل بخير، لم أتمالك نفسي وانفجرت ضاحكا وأنا أتخيل زوج أختي الوقور بملابسه المقلوبة! أشاحت الجدة بوجهها وهي تغمض إحدى عينيها قليلا، وكادت أسنانها تتكسر غيظا، فأخذتني زوجتي من يدي لخارج الغرفة وهي تشعر بالخجل من تصرفي.

لم أكد انتهي من نوبة الضحك، حتى سمعنا صوتاً مدوياً لشيء يتكسر، انتفضت من مكاني فكانت يد زوجتي أسرع فأجلستني مكاني مرة أخرى، وبهدوء قالت:

- متخافش دي بتكسر الفخارة عشان تطرد الأرواح الشريرة.
- وهي الأرواح الشريرة دي كده مشيت خلاص؟
- عادات وتقاليد.
- تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان.
- دي ست كبيرة واتربت على كده ولو اتكلمنا هتزعل، معلش ربنا يهديها.
- يا سيدي على الحكم، ربنا يكملك بعقلك.

خرجت الجدة تتقدم الأم تحمل الصغير في الغربال، فعلت الزغاريد وصدحت الأغاني، وكاد صوت الهُون النحاسي أن يصم آذان الكبير فكيف مع الوليد المسكين؟!

ابتلعت لساني وكظمت غيظي حتى انتهى السبوع ورحل الجميع وهدأت الأجواء..

التقطت الصغير، احتضنه ورحت أتشممه متفحصا ملامحه، فإذا بلونه الوردي الذي كان يكسو وجهه يتحول بوضوح للأصفر، سابت أعصابي وفزعت وأخبرتهم بضرورة الذهاب به للطبيب.

أتت زوجتي ونظرت في وجهه نظرة خبير ذرة متفحصة، وقالت بكل ثقة وهدوء:

- دي حالة صفراء عادية، وهتروح مع الوقت مش محتاج لدكتور، وعلاجها عندي.

تعجبت من الجدية التي كست ملامحها أثناء الحديث والجميع يستمع إليها بانتباه، حتى أنني شعرت أنها قد حصلت على درجة الدكتوراة في مرض الصفراء بالذات.

غابت قليلا في المطبخ، ثم خرجت تحمل بيدها عقد، تهاويت على الكرسي جاحظ العينين وكاد قلبي يتوقف وأصاب بشلل رعاش وأنا أسمع ثناء الجميع عليها، بعد أن طوقت الصغير بعقد من فصوص الثوم!

قراءة أدبية في مجموعة " غربة روح" للكاتبة راندا مدين

***

في خمسة وعشرون قصة تكتب الأديبة راندا مدين مجموعتها القصصية بأسلوب شيق وجذاب حتى وصلت بنا إلى فكرتها الرئيسية في هذه المجموعة وهي التعرض للقضايا الإنسانية التي تزخر بالمواقف والمشاعر الحياتية الحية، وواقعية اللقطات فنجدها تلتقط بكاميرا قلمها قصة" **المجذوب**" وتبين مدى قسوة الأطفال، فليست بالضرورة تكون البراءة طيبة، وبيَّنت كيف تعاطف الحيوان مع الإنسان أكثر من تعاطف الإنسان مع الإنسان

وفي " **ملك على مدينه الموتى**" فعلى قدر إحساس الحارس بقيمة الآثار وبقيمة بلده إلا إننا نجد مفهوم جملة "عبد المأمور" يتجلى في تبرير تسهيل سرقة بعض الآثار، فالأجنبي يأمر الحارس بالسرقة ثم يلصق به التهمة، لا يُعاقب إلا عبد المأمور.

وفي قصة " **الحياة ليست عادلة**" تأتي المقارنة بين مَنْ ينهبون ثروات الشعوب، والمهوبون الجياع، واعتراض من يحلمون بالحرية بأحقيتهم في الحياة.

أما في "**غيبوبة**" تصور القاصة هنا حالة ذلك الذي يُغيِّب المخدر عقله فيتصرف كالمجنون ويستفيق على جريمة لا يعي كيف اقترفها.

وفي "**لحظة فارقة**" تحدث المأساة، وتمسح ضغوط الحياة كل مشاعر جميلة، هناك مقولة تنطبق عليها هذه القصة وهي" إذا دخل الفقر من الباب هرب الحب من الشباك".

أما قصة "**عوض**" فهي قصة أدمت فؤادي، فلا أَمَرُ من جحود الأبناء، وما أطيب عوض الله بابن لم تلده، جمعتهما حياة التشرد.

ونأتي لقصة "**الأجوف**" فقد أخذتنا القاصة إلى عالم الفانتازيا، فرسمت لنا صورة واقعية ثم دمجتها مع الخيال ليتخلص بطل القصة من أزمته والخديعة التي جاءت من أقرب الناس إليه.

ونأتي لقصة " **مازلت استحق الحياة**" التي تحكي عن العنوسة، وأعجبني قول البطلة: كيف لمن لم يستطع أن يملك قلبي أن أملَّكه حريتي؟ ثم نهاية القصة والقرار الذي أخذته بقولها:

_ اليوم أدركت أنه من الأفضل أن يفوتني ذاك القطار اللعين بدلا من أن يدهسني، فأنا ما زلت استحق الحب.

ولكثرة اهتمام الكاتبة بالأنثى نجدها تردف قصتها السابقة بقصة "**زواج مبكر**" تلك العادة التي مازالت تحدث في مجتمعنا بحجة أن زواج البنت سترة، فنرى أن الزواج هنا مجرد إيذاء نفسي وبدني أدى بالفتاة الصغيرة إلى القبر.

أما قصة " **قبضة**" فنجد الأديبة تضفي على البطلة قوة خارقة تتمثل في قبضة يدها التي تؤهلها للانتقام من كل شخص تسبب في أذاها النفسي.

وفي قصة " **الحلم**" نجد الشاب الذي ظل يبحث عن حلمه حتى تمثل له فجأة في صورة فتاة واسمها حلم.

وعن "**عروسة المولد**" التي تصف مرارة الغربة وكيف أنها تُفقد الإنسان الكثير من نفسه وأحلامه وسكينته داخل وطنه، فقد صورتها الكاتبة بشكل عاطفي جميل.

وفي قصة "**الزهايمر**" تسير الأحداث بسلاسة؛ فنرى صورة عظيمة للبر بالأم التي أصابها النسيان، فكان الابن خير معين لها.

وقصة "**يعلم ما في الأرحام**" قصة قدرية، أسلمت فيها الأم أمرها لله بعد صبر كبير على حدوث الحمل، وعندما حدث، أخبرها الأطباء أن الجنين مشوها ولابد من الإجهاض، فاحتسبت وصبرت وكلل الله صبرها وأنجبت ثلاثة توائم، جميعهم في حالة طيبة.

وفي قصة "**أبي يكذب**" نرى موت أحلام الشباب في وطنهم وضياع كرامتهم يدفعهم للإلقاء بأنفسهم في البحر.. مرددين: إما الحلم الأوربي وإما أن نكون وجبة للأسماك!!

أما "**غيبوبة روح**" والتي تصف فيها الطفل المشرد الذي بلا أب أو قلب أم يحميه، ينتظر ماذا ستفعل الأيام بروحه المغتربة.

وقصة "**المعطف الأبيض**" فيها تتجلى مقولة " الحرام يأخذ الحلال ويذهب" ففيها الأب الذي ضحى من أجل ابنته فوقع في براثن الحاجة، فالتقطته جماعة تخريبية، أمرته أن ينفذ رغباتها مقابل المال لعلاج ابنته، فكانت النتيجة فقدان ابنته الوحيدة بيده.

أما قصة "**ثريـا**" والتي تحكى القصة الأزلية التي تدور بين زوجة الابن والحماة، لكن في هذه القصة، فكرت زوجة الابن بطريقة إجرامية فخططت لقتل الحماة، وقدر الله لهذه الزوجة أن تموت بنفس ما قدمته لحماتها في لحظة شعورها بالانتصار.

وفي "**بداية وليست نهاية**" فنرى صراع داخل زوج خسر حبه الأول فتزوج لينساها، وكانت الزوجة هي الضحية التي لم تلق منه أي نوع من المودة والرحمة، بل فاجأها بتخييرها: إما الرضا بضرة أو الطلاق، ورغم أنها تعلم أن المجتمع يظلم المطلقات فإنها اختارت الطلاق ليكون بداية حياة لها.

وتعرض الكاتبة في "**مسائيات**" صورة المرأة فارغة الرأس التي لا تفكر إلا في هذيان أحلامها فتفرض شكوكها على زوجها الذي تجعل حياته جحيما لمجرد اعتقادها في صحة أحلامها.

وفي قصة "**السر**" التي تحكي قصة أم تنزانية خافت على طفلتها المصابة بالمهق والذين يسمونهم (الألبينو) فحبستها في كهف بعيدة عن البشر جميعهم حتى والدها خوفا من الخطف لأن هناك اعتقادا يقول أن أعضاء هؤلاء الأشخاص لها قوة سحرية عندما يستخدمها الأطباء السحرة، حيث يعتقد أنها قد تجلب الثروة والصحة والسعادة، وتعالج الأمراض القاتلة كمرض "الإيدز." وكانت النهاية مفزعة.

وتأتي "**رابعة**" وهي قصة تمر بها الكثير من الأسر ممن ينتظرون الذكر، فأتيهم البنت الرابعة لتحول حياة الأسرة إلى جحيم، وتكون البنات الضحية للتفرقة بين الذكر والأنثى.

أما قصة " **أضواء**" فملخصها أنه مهما علت الأضواء حول الإنسان فليس بالضرورة أن يكون سعيدا، فربما حمل في صدره أحزان العالم.

والقصة الأخيرة " السبوع" والتي تُلقي الضوء على الخرافات التي مازالت تعشش في أذهان الناس رغم الطفرة العلمية التي تمر بها حقبتنا.

والمجموعة غاية في المتعة لأنها تمس أطياف كثيرة من المجتمع بأفكارهم المتعددة، وأتمنى للكاتبة الجميلة كل التوفيق والتميز.

نبيلة غنيم

عن الكاتبة

الاسم: راندا إبراهيم مدين

محل الميلاد: بركة السبع _المنوفية

المؤهل : بكالوريوس علوم وتربية

الوظيفة : أول رياض أطفال

العضويات: عضو نادي أدب بركة السبع ونادي أدب شبين الكوم

الفهرس

مقدمة: 5
المجـــذوب 7
ملك على مدينه الموتى..... 10
الحياة ليست عادلة 13
غيبوبة 14
لحظة فارقة..... 17
عوض.. 21
الأجـوف.. 25
ما زلت استحق الحب 39
زواج مبكـر..... 44
قبضة.. 51
عروسة المولد.. 62
الزهايمر 67
يعلم ما في الأرحام 79
أبي يكذب 89

غربة روح 91
المعطف الأبيض..... 95
ثريـــا..... 101
بداية وليست نهاية..... 108
السر..... 118
رابعة..... 124
أضواء..... 136
السبوع..... 139
قراءة أدبية في مجموعة "غربة روح" للكاتبة راندا مدين 146

كم لديـك مـن السطور الجميلـة التـى أخـذت مـنــــك الكثيــر مـــن المجهــود والاعتنــاء لكى تكون أفضل ما يمكن لتعبر بها عن شعور داخلى لم تستطع أن تشاركه مع أحد غيرك.

مـهـمـــا كــانـــت سـطـــورك

قصص... روايـات... أشعـار... مقـالات

باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية

تـــــواصـــــل معنـــا

لتشارك سطورك مع العالم

٠١١٢٢٣٨٠٤٤٣